مآخذ على كتاب "لمحة إلى مصر لكلوت بك"

اعداد أ.د./مالك محمد أحمد رشوان
الأستاذ المساعد بقسم التاريخ والحضارة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ،،،

فهذه دراسة حول بعض الموضوعات التى تضمنها كتاب كلوك بك ـ لمحة الى مصر ـ تقوم على النقد التاريخى الموضوعى والتحليلى معتمدة على المصادر المعاصرة للأحداث الأجنبى منها والعربى .

والغرض من تلك الدراسة وضع الحقائق التاريخية صحيحة ـ أو أقرب الى الصحة ـ أمام الباحثين والقراء والبعد بالتاريخ عن الرؤى الشخصية الضيقة المحدودة ، والفكر المشتط ، والمغالاة المغرضة ، خاصة وأن كتاب كلوت بك ـ محل الدراسة ـ مصدر له أهميته الدارسين والباحثين فى تاريخ مصر الحديث ، وبالرجوع الى البحوث والدراسات الأكاديمية الحديثة منها والمعاصرة يتبين لنا أن هذا الكتاب يأتى فى مقدمة مراجع هذه البحوث وتلك الدراسات ، خاصة وأن هذه الدراسة النقدية لهذا المؤلف يمكن أن تجعل منه مصدرا لا غنى

عنه للمعلومات المفيدة عن الحياة فى مصر خـلال الفترة التى تعرض لهـا(١) .

ومنهج هذه الدراسة يقوم على عرض وجهة نظر كلوت بك أولا ، ثم القـاء الضـوء على الجوانب التى يفترض عدم دقتها تاريخيـا ، ثم تأصـيل الأحداث التاريخية بعد الرجوع الى المصـادر المعاصـرة للأحداث كعجائب الآثار فى التراجم والأخبـار للجبرتى ، وتقـارير قناصل الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية فى مصر ، وغيرهـا من المصـادر .

كلمة عن كلوت بـك وكتابه :

ولد كلوت بك فى مدينة جرينوبل(٢) بفرنسـا سنة ١٧٩٣م من أبوين فقيرين ، وقد أقبل على الدراسة منذ طفولته ولحاجته الى المال عمل صـبيا عند أحد حلاقى مرسيليا وواصل دراسته حتى عين طبيبا ثانيا فى مستشفى الصـدقة بمرسيليا ، ثم عمل طبيبا بحرا حتى التقى بتاجر فرنسى كلفه محمد على باختيار فرنسى للعمل كطبيب فى الجيش المصرى ، ومشرف على الادارة الصحية للجيش ، وفى سنة ١٨٢٥م جاء كلوت بـك الى مصر وسرعان ما اكتسب ثقة الباشا فعين رئيسـا لأطباء الجيش ، ثـم اقترح انشاء مستشفى عسـكرى فى منطقـة أبى زعبل فوافقه ، وفى سنة ١٨٢٧م أنشأ محمد على مدرسة لتخريج

---

(١) هيلين آن ريفلين ـ الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ص ٤٠٥ ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ومصطفى الحسينى ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٦٨م .

(٢) تقـع جرينوبل فى جنوب شرق فرنسـا على مقربة من الحدود الفرنسية الايطالية .

الأطباء وعهد الى كلوت بك بادارتها واختيار مجموعة من الأطباء الأوربيين للعمل فيها(٣) .

وفى فبراير ١٨٢٧م بدأت الدراسة بمدرسة الطب فى أبى زعبل وظلت كذلك حتى نقلت الى القصر العينى ، واختار لها كلوت بك مجموعة من الأطباء الأكفاء للتدريس فيها منهم جيطانى بك Gaetni (طبيب محمد على) وبارتلمى Barthelmy وسبيرنتزا Lasperanza وغيرهم(٤) .

وفى سنة ١٨٣٣م صدر أمر بتعيين كلوت بك مفتشا لعموم الصحة بديوان البحرية والجهادية ، وأصبح عضوا بمجلس شورى الأطباء ، وناظرا لمدرسة الطب البشرى والبيطرى مع مباشرة ورؤية أعمال الحكماء والأجزاجية(٥) (الصيادلة) ، وكان محمد على قد أنشأ مجلسا للصحة والاسبتاليات (المستشفيات) فى عام ١٨٢٦ م ثم أطلق عليه مجلس الصحة العمومية فى سنة ١٨٣٤ م (٦) وأسند الاشراف عليه الى كلوت بك وقد قام بتنظيمه على النمط الفرنسى فكان لهذه أثره فى النهوض بالحالة الصحية لمصر ، كما عنى بتنظيم مستشفيات ومجلس صحة الاسكندرية .

---

(٣) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ط ثالثة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ص ٤١٧ .

(٤) د. محمد فؤاد شكرى وآخران ـ بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) ط / أولى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م (١٣٦٧هـ) ص ٨٩ .

(٥) أمين سامى باشا ـ تقويم النيل ج ٢ ط / أولى دار الكتب المصرية ١٣٤٦هـ /١٩٢٨م ص ٤١٨ .

(٦) د. محمد فؤاد شكرى وآخران ـ المرجع السابق ص ٨٩ .

وقد كان لجهود كلوت بك فى تحسين الحالة الصحية بمصر أثره وبخاصة فى التصدى للأوبئة مثل الكوليرا والطاعون وقد سر محمد على من نجاح تلك الجهود فمنحه لقب البكوية فى ١٨٣٠م ، كما منح لقب (رتبة) مير لواء فى سنة ١٨٣٥م بعد نجاحه فى مقاومة الطاعون وبعد موت محمد على عاد كلوت بك الى فرنسا واستدعى للعمل فى مصر فى عهد سعيد باشا الا أن صحته اعتلت فعاد مرة أخرى الى فرنسا سنة ١٨٥٨ م ليظل بها حتى مات فى أغسطس سنة ١٨٦٨(٧) ٠

وابان وجود كلوك بك فى مصر فى الفترة من ١٨٢٥ : الى قبيل نهاية ١٨٤٠م كان قد أنتهى من جمع المعلومات التى قام بنشرها فى باريس فى سنة ١٨٤٠م تحت عنوان

Aqreeu General Sur Legypte Clot Bey (A-B) paris 1840

وترجمته الى العربية (لمحة الى مصر) :

وفى مقدمة هذا الكتاب أشار كلوت بك الى أن ما تضمنه الكتاب يعبر عن وجهة نظره الخاصة فقال (ان هذا المصنف لم يوص بتصنيفه أحد ولم يهيمن على تدوينه أحد ، فاذا عثر القارىء فيه على مدح اقتضاه الانصاف والعدل فى حق (٠٠ أحد) ٠٠ فليثق بأننى لم أطاوع فيه هوى النفس ولا مجرد المجاملة أو الأدب نحو الأشخاص ، وانني فيما كتبت قد احتفظت بحريتى كاملة فى الاعراب عن أفكارى بما اخترت لها من العبارات والألفاظ(٨) ٠

---

(٧) الرافعى ـ المرجع السابق ص ٤٧٠ ، ٤٧١ ٠

(٨) كلوت بك ـ لمحة الى مصر ج ١ ص ٨ ـ ترجمة محمد سعود ـ ط ثانية ـ دار الموقف العربى بمصر ١٩٨١ ، ١٩٨٢م ٠

وقد ترجم كتاب (لمحة الى مصر) الى العربيـة حيث قـام محمد مسعود بترجمته وصدرت له بمصر طبعتان كانت ثانيتهما فى سنة ١٩٨١ ، ١٩٨٢م حيث صدر فى ثلاثة أجزاء من القطع الصغير ، وهذه الطبعة هى التى اعتمدت عليها تلك الدراسة .

وتقع أجزاء الكتاب الثلاثة فى ثلاث وثمـانين وستمائة صحيفة، وقد قسم كلوت بك موضوعات الكتاب على النحو التالى : تحـدث فى التمهيد عن تاريخ مصر منذ العصور الفرعونية حتى عصر محمد على ثم تحدث عن جغرافية مصر ثم قدم دراسة للمعادن والنباتات والحيوانات والطيور والأسماك فى مصر ، ثم تحدث عن سكان مصر وامتد حديث السـكان الى الجزء الثانى فاتبعه بالحديث عن المساكن والمدن . ثـم أشار الى الديانات والعادات والتقاليد وفى الجـزء الثالث تحـدث عن عناصر سكان مصر من الأجناس المختلفة ، ثم ختم حديثه بعرض للحكومة والأنظمة السياسية فى مصر كما تعرض للاحتكار ، وختم كتابه بالحديث عن الجيش والترسانة مناقشا أمر التجنيد فى مصر .

موضوعـات الدراسـة

أولا ــ الحملة الفرنسية ١٧٩٨م :

يقول كلوت بك : انه (أى محمد على) قد وضع يده على ماتركت فرنسا بمصر من التراث الثمين .. فكان ذلك خـير تعـزية لمجدنـا العسكرى وأجمل سلوان لعلمائنا الفطاحل على ما ختمت مساعيهم به من الخيبة والفشل ، أجال الرجل نظره فيما أودعناه أرض الفراعنة من بذور الحضارة ورويناها من دمائنا(٩) .

---

(٩) كلوت بك ــ لمحة الى مصر جـ ١ ص ٣ .

وفى موضع آخر يقول : (واذا جاء تطبيق الاصلاحات فى مصر مقرونا بالنجاح مكفول الثمرات فانما الفضل فى ذلك يرجع الى تأثير الحملة الفرنسية فى شئون مصر وأحوالها وهو ما يستخلص منه أن فرنسا ونابليون كانا سبب حركة الحضارة التى ظهرت فى الشرق وتولى محمد على غرسها فى مصر وتعهدها بعنايته حتى أينعت ثمارها على ما هو مشاهد اليوم(١٠) .

وفى القولين السابقين يربط كلوت بك بين مجيء الفرنسيين الى مصر فى حملتهم الاستعمارية وبين نشر الحضارة ، والربط بين الأستعمار ونشر الحضارة وتحقيق أمانى البشرية أمر روج له دعاة الاستعمار المتعصبين من قبل فعرف الأستعمار بقوله :

(Imperialis is Nationalism transfigured by a light from the aepirations of Universal humanity).

وترجمته الى العربية (الحركة الاستعمارية هى الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية) ولا غرابة فى أن ينظر كلوت بك الى الاستعمار على أنه نشر للحضارة فهو فرنسى معاصر للثورة الفرنسية التى كان كتاب روح القوانين spr.tof Laws لمونتيسكيو(١١) مرجعها الدستورى الأول ذلك الكتاب الذى حمل فكرا معينا اشتمل ضمن ما اشتمل على نظرة استعمارية مسرفة

---

(١٠) كلوت بك ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧٨ .

(١١) مونتيسكيو (١٦٨٩ : ١٧٧٥م) أحد كبار الباحثين فى المسائل الدستورية ، وضع كتاب روح القوانين وناقش فيه أشكال الحكومات ، وكان تأثيره على قادة الثورتين الأمريكية والفرنسية عميقا ـ انظر د.محمود صالح منسى ـ مذكرات فى تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ص ٨٠٧

للأفارقة — ومصر جزء من افريقية — فقال : اذا طلب منى ان أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا فانى أقول : ان شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم ترى بدا من أن تستعبد شعوب افريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، والشعوب المذكورة ما هى الا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم الى قمة الرأس وأنفها أفطس فطسا شنيعا بحيث يبعد أن يكون من المستحيل أن ترثى لها ولا يمكن المرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحا وعلى الأخص روحا طيبة فى داخل جسم حالك السواد (١٢) .

كما أن تلك الفكرة نابعة من التقاليد الفكرية الغربية التى درجت على أسقاط تاريخ التفكير السياسى والاسلامى من حساباتها حيث صور المستشرقون غيرهم من مفكرى الغرب الحضارة الغربية على أنها حضارة الحرية وصورت تلك النظرية مجتمعات الشرق الاسلامى على أنها لا تعرف سوى نموذج السلطة الاستبدادية ، وقد حملت تلك الدراسات الاسلام النصيب الأوفى من مسئولية الركود والتخلف والاستبداد المنسوب لمجتمعات الشرق ، وقد قامت هذه الدراسة على جهل كامل بالخبرة التاريخية الاسلامية فى الممارسة السياسية حيث رأى أصحاب هذه النظرية أن مجتمعات الشرق الاسلامية لا يمكنها أن تثور أو تنتبه بدوافع محلية(١٣) ، وانما لابد لايقاظها من عوامل خارجية كمجىء حملة بونابرت الى مصر والشرق .

---

(١٢) د. محمد عوض محمد — الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ص ٣٦ ، ٣٧ ط رابعة دار المعارف — مصر ١٩٥٧م .

(١٣) نيفين عبد الخالق مصطفى — مبدأ مقاومة الطغيان دراسة فى =

أما عن التطور الذى حدث بمصر محمد على والذى اعتقد كاوت بك — خطأ — أن مرجعه الى أمرين أحدهما : التراث الثمين الذى خلفته الحملة الفرنسية ، وثانيهما : تأثير الحملة الفرنسية على شئون مصر وأحوالها الأمر الذى جعله يرى أن بونابارت وحملته الى الشرق كانا سبب حركة الحضارة التى ظهرت فى مصر فهذا من قبيل الافتراء المحض .

يقول الرافعى فى حديثه عن نهضة مصر فى عصر محمد على (لا جدال فى أن محمد على قد سما بأعماله الى مصاف العظماء من الرجال .. اذ أنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة وبعث حضارة زاهرة وأنبت ثقافة لها الفضل الكبير فى نشر لواء العلم والعرفان فى وادى النيل) وعن أسباب نجاح محمد على فى تحقيق ذلك يقول :(أن عبقريته وعناية الله له فى أدوار حياته ، وتوفر قدر كبير من المواهب كان لها أثرها فى نجاحه وتوفيقه ، وأول هذه المواهب ذكاؤه الحارق ، وبعد نظره ، وسعة حيلته ، كما تمتع بالشجاعة وعلو الهمة ومضاء العزيمة ... كما كان محبا للعمل جلدا أهتم بدقائق الأعمال وراقبها بنفسه وبهذه الصفات كان بيث روح العمل والنشاط فى نفوس الموظفين .. فقد حقق لمصر الاستقلال وفوق ذلك وضع الدعائم الكفيلة بصيانة ذلك الأستقلال ..) أما أهم ما ساعد محمد على على تحقيق طموحاته فهو شعب مصر الذى (وقع عليه أرهاق كبير .. وفدحته السخرة ..) كما أن سيطرة محمد على الكبيرة على موارد مصر وامكاناتها الهائلة قد مكنه من انجاح مشروعاته (فقد تملك أرض مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعة .. وصارت حكومته هى المالكة لكل الأطيان والحاصلات والتجارة والصناعة) كما أن الرجل قبض على شعب مصر

وطوائفه بيد من حديد (فلم يفكر جديا فى ايجاد نظام الشورى ولم يترك للشعب فرصة للمشاركة فى الحكم(١٤) ٠

ومن هنا يمكن القول بأن النهضة التي تحققت فى مصر فى عهد محمد على كانت ثمرة طبيعية لتخطيط وادارة وتوجيه محمد على ولاستغلاله الكامل لموارد مصر وطاقات أبنائها ، وتسخير شعب مصر بكل طاقاته وممتلكاته لتنفيذ تلك الطموحات فكان على والى مصر التخطيط السليم المحكم وكان على شعب مصر أن يدفع ثمن تنفيذ مخططات محمد على فقرا وضنكا وسخرة وارهاقا ومعاناة بصورة جعلت فترة حكمه توصف بالديكتاتورية والغاء الحريات وتكميم الأفواه والقضاء الفردى والجماعى على معارضيه ٠

وفى حديثه عن نتائج الحملة الفرنسية يقول كلوت بك (٠٠٠ ومن نتائج الحملة الفرنسية أن سكنت فورة تعصب المسلمين للدين على غير المؤمنين به)(١٥) ولسنا ندرى هل كان تأديب المسلمين وارجاعهم الى صوابهم هدفا من أهداف الحملة الفرنسية أم لا ؟

ويقول كلوت بك (٠٠٠ وكان القائد الفرنسى « بونابرت ») قد خلب بفعاله الباهرة عقولهم — أى المسلمين — السريعة التأثر بالمؤثرات ، فان ما أبداه من الحكمة فى تسامحه والمهارة فى احترامه ديانة الأمة المغلوبة وعاداتها بثا فى نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة

الفكر والنظرية السياسية الاسلامية ص ٢٧٣ : ٢٧٦ — مجلة العلوم الاجتماعية — تصدرها جامعة الكويت العدد الثانى صيف ١٩٨٨ — المجلد السادس عشر ٠

(١٤) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ص ٦٥٢ : ٦٦٣ ٠

(١٥) كلوت بك — مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٥٤ ٠

فيما بينها وبين أوربا ، والانصراف نحو المدينة الغربية لتلتمس منها امدادها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها(١٦) .

وقد أراد بونابرت قبيل أن تطأ أقدامه أرض مصر أن يشعر المصريين المسلمين باحترامه للدين الاسلامى ويظهر مجموعة من الأعتبارات التى اعتقد أنها ستنطلى على شعب مصر وتجعله يفتح أبوابه مرحبا بالفرنسيين فى بلاده . ومن صور محاولات بونابارت استمالة شعب مصر المسلم ما يلى :

١ ــ المنشورات التى وجهها بونابارت الى الشعب المصرى .

فى ٢٢ يونيو ١٧٩٨م وقبل وصول الحملة الى الاسكندرية أصدر بونابارت الى جنده منشورا جاء فيه (ان الشعب المصرى يدين بالاسلام .. فلا ينبغى على الفرنسيين معارضة المصريين فى عقيدتهم أو تخطئتهم فيها ، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام، وعليهم أن يكونوا متسامحين حيال الأعياد والاحتفالات التى يذكرها القرآن الكريم ... وأكد لجنده أن مصلحة الفرنسيين تقتضى اكتساب صداقة المصريين(١٧) وأراد بونابارت بذلك أن يتولد لدى المصريين شعور بالألفة نحو الفرنسيين ، أو أن تخف حدة معارضتهم احتلال فرنسا لبلادهم .

ثم وجه منشورا آخر الى المصريين ترجمة الى العربية واستهله بـ « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك

---

(١٦) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٥٤ .

(١٧) د. عبد العزيز الشناوى صور من دور الأزهر مقومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ١٢ ، ١٣ ، مطبعة دار الكتب ــ مصر ــ ١٩٧١م.

« فى ملكه » ثم أكد بونابارت أنه لن يتعرض بسوء للدين الاسلامى وانه أكثر من المماليك عبادة لله واحتراما لنبيه وللقرآن الكريم . وقرر أن الفرنسيين مسلمون مخلصون . » وأخذ يكيل عبارات الثناء على المصريين وقد لوح فى منشوره بتهديد المعارضين للوجود الفرنسى فقال: « سنحرق كل قرية تقاوم الجيش الفرنسى » ثم اختتم منشوره بأن طلب من المصريين أن يدعوا الله سبحانه وتعالى قائلين « ... أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى : لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية » (١٨) .

٢ ــ حرص بونابارت على اعلان الصداقة الوطيدة بين فرنسا والدولة العثمانية وبينه وبين السلطان العثمانى .

ففى رسالة وجهها الى أبى بكر باشا الطرابلسى « الوالى العثمانى فى مصر » فى ٣٠ يونيو ١٧٩٨ م قال : « .. ان الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان العثمانى فى أوربا » كما أرسل خطابا الى ادريس بك « قائد السفينة التركية المرابطة فى ميناء الاسكندرية والمسماة عقاب بحرى » ــ يقول فيه « .. انك تابع لصديقنا العظيم سلطان تركيا » (١٩) .

٣ ــ تقربه من المشايخ علماء المسلمين أهل الحل والعقد فى مصر واستمالتهم بضمهم الى ديوانه الذى أشار الى كون الأزهر مقرا له شبه الاستيلاء على القاهرة تضمنت المنشورات وعود احترامه للدين الاسلامى وعلماء المسلمين حيث قال عن الاسلام انه « دين النبى الذى أحترمه واقدسه » ثم دعا الى تشكيل ديوان من كبار علماء الأزهر

---

(١٨) د. عبد العزيز الشناوى ــ المرجع السابق ص ١٧ : ١٩ .
(١٩) د. عبد العزيز الشناوى ــ مرجع سبق ذكره ص ٦٣ : ٢٥ .

حيث يجتمعون فى الجامع الأزهر لأجل العمل على « ... راحة الرعية واجراء الشريعة الاسلامية »(٢٠) .

٤ ــ اظهار الادارة الفرنسية الأحترام والأجلال لعلماء المسلمين، حيث تودد بونابارت الى المشايخ وأضفى عليهم مظاهر الاحترام فأمر بأن يؤدى رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر اذا أتوا الى مقر القيادة ، وكان يرحب بهم ويتوسط جلستهم محاولا اشاعة الطمأنينة فى نفوسهم ومظهر احترامه الشديد للاسلام وللنبى محمد (٢١) ــ صلى الله عليه وسلم ــ بل تطور أمره فوعد بانه سيعتنق الاسلام هو وجنوده وأنه يعتزم اقامة مسجد ضخم لا مثيل له فى العالم الاسلامى(٢٢) .

٥ ــ اهتمام بونابارت بأعياد المسلمين واحتفالاتهم كالأحتفال بالمولد النبوى ، فقد حرص على حضور ذلك الاحتفال وجلس مع الحاضرين على البسط الأرضية واختار موقعا متوسطا بين المشايخ واستمع معهم الى القرآن الكريم والأناشيد الدينية .. « وقد بلغ من دهاء بونابارت أنه أخذ يقلد الحاضرين فكان يهتز ذات اليمين وذات الشمال كأنه يدرك ويفهم ما يسمعه من آيات قرآنية وأحاديث وأناشيد دينية » . وقال فى رسالة أرسلها الى الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الاسكندرية اننى أتطلع الى اليوم الذى « أستطيع فيه

---

(٢٠) عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ــ ج ٢ ص ١٩٢ دار الجيل لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع .

(٢١) د. عبد العزيز الشناوى ــ المرجع السابق ص ٣١ : ٣٤ .

(٢٢) د. عبد العزيز الشناوى ــ المرجع السابق ص ٦٥ .

جمع كل الرجال العقلاء والمتعلمين فى البلاد واقامة نظـام يقوم على مبادىء القرآن التى هى وحدها المبادىء الحقـة والتى هى وحـدها القديرة على اسعاد الناس » (٢٣) •

٦ ــ اقحام المظاهر الاسلامية فى كل الأحتفالات • فقـد أضفى بونابارت على الأحتفال بالثورة الفرنسـية فى ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨ م المظهر الاسلامى فأمر باقامة قوسى نصر كبيرين « بوابتين » كتب على احداهما « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » •

هذه بعض نموذجات لحيل بونابارت ومحاولات استمالته للمسلمين وتلاعبه بالألفاظ الأمر الذى أطلق عليه المصطلح التاريخى « سياسة بونابارت الاسلامية » (٢٤) • La politique Musulmane de Bonaparte. والذى اعتقد كارت يك أنه بث روح الحب عند المصريين وجعلهم يتولون على الناس نظم وحضارة فرنسا • وبعد •• فهل كان لحيـل ومحاولات بونابارت نتيجة تذكر ؟ وما هو صداها فى أوساط مسلمى مصر ؟ وهل كان بونابارت صادقا فيما يقول ؟

وللاجابة على الشق الأول من السؤال نقول : ان وقائع التاريخ لا تكذب وقـد سـجلت كيف تعـامل المصريون مع الفرنسيين ، ففى الأسكندرية دافـع أهلهـا وحاميتها عن بلدهم دفاعا مستميتا سجلته أقلام الفرنسيين أنفسهم (٢٥) •

---

(٢٣) د• عبد العزيز الشناوى ــ المرجع السابق ص ٣٩ : ٤٠ •

(٢٤) د• عبد العزيز الشناوى ــ المرجع السابق ص ٦ •

(٢٥) عبد الرحمن الرافعى ــ عصر محمد على ص ١٧٥ ــ نقلا عن تقارير قادة الحملة الفرنسية •

أما أهل القاهرة فقد لبوا النداء للجهاد دفاعا عن دينهم ووطنهم وخرج الجميع الى بولاق واشتركوا من جميع الطوائف والحرف وتبرع القادرون وبذلوا بجميع ما فى وسعهم ولم يبق فى المدينة سوى النساء والأطفال (٢٦) .

ولم يمض على الوجود الفرنسى ثلاثة أشهر حتى اندلعت ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨م وشارك فيها أهل مصر وتمكنوا من زعزعة أركان الادارة الفرنسية ثم كانت ثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠ م وبعد ثلاثة أشهر من تلك الثورة وفى يونيو ١٨٠٠ م لقى كليبر قائد الحملة بعد بونابارت مصرعه على يد أزهرى مسلم .

أما من رشحهم بونابارت للتعاون مع ادارته فى الديوان فقد رفض ثلاثة منهم الاشتراك فى ذلك الديوان وهم « عمر مكرم ، الشيخ السادات ، الشيخ محمد الأمير » وأما من قبلوا الانضمام الى ذلك الديوان فقد كان على رأسهم الشيخ الشرقاوى الذى اختير رئيسا للديوان ذلك الذى رفض رفضا باتا وضع الشارة التى تمثل العلم الفرنسى على كتفه وألقاها على الأرض وطلب اعفاءه من الديوان (٢٧).

وهكذا أجابت تصرفات المصريين على الشق الأول من السؤال ، وأوضحت أن حيل ومحاولات بونابارت لم تأت بنتيجة تذكر .

أما الشق الثانى من السؤال وهو « ما هى صدى محاولات

---

(٢٦) د. مالك محمد رشوان ـ علماء الأزهر بين بونابرت ومحمد على ص ٣٣ ، ط / أولى مطبعة الأمانة ـ مصر ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

(٢٧) عبد الرحمن الرافعى ـ تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٥٩ ط / خامسة ـ دار المعارف بمصر ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

بونابارت فى أوساط المصريين المسلمين ؟ » فالاجابة عليه تسجلها مجموعة من الأنطباعات التى توضح رد فعل هذه المجلولات عند المصريين المسلمين ٠

يقول الجبرتى فى رده على زعم بونابارت احترام القرآن الكريم: « ٠٠ ان احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبى الدالة على صدقه وأنه نبى آخر الزمان وان أمته أشرف الأمم وهؤلاء لجميع ذلك نافون وفيما عندوه كاذبون ، و « كأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (٢٨) ، أما التعظيم الحسى فهو فرض مأمور به بقوله تعالى « لا يمسه الا المطهرون » (٢٩) فيحرم على المحدث أن يمس آية من القرآن وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسك بأوراق المصحف ويلقيها ملطخة فى الطريق ومحل النجاسات فانهم لا يستنجون بالماء البتة وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما يجده من الأوراق ٠٠٠فأين اعزك الله التعظيم الذى يزعمه هذا المفترى » (٣٠) ٠

ويسجل نيقولا الترك تعليقا لاذعا لبعض المصريين فيقول : حينما أقام بونابارت احتفالاته بعيد قيام الثورة الفرنسية ، أقام سارية أطلق عليها الفرنسيون شجرة الحرية أما المصريون ففى تعليق يكتنف مدى حسرتهم على الهوان الذى حل بهم والعار الذى لصق بهم من جراء الوجود الفرنسى على أرضهم فقد قالوا عن السارية :

---

(٢٨) سورة يوسف ـ الآية ١٠٥ ٠

(٢٩) سورة الواقعة ـ الآية ٧٩ ٠

(٣٠) عبد الرحمن الجبرتى ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ـ تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقى ص ٣٢ ، ٣٣ ط / أولى ـ مجلة البيان العربى ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ٠

ان هذه شارة الخازوق الذى أدخلوه فينا ، باستيلائهم على مملكتنا (٣١) .

وقد سجل بونابارت مشاعر المصريين فى مذكراته فقال : ان الجيش الفرنسى قد استولى على الاسكندرية والقاهرة وانتصر فى معركتى شبراريس وامبابة ولكن موقف الفرنسيين لم يكن مستقرا بل ظل مزعزعا ، ولم يتحمل المصريون وجود الفرنسيين فى بلادهم الا كرها لأن سرعة الحوادث قد أذهلتهم ولم يذعنوا الا أمام القوة المادية ولكنهم كمؤمنين ومسلمين لا يخفون حسرتهم واستياءهم من انتصار غير المؤمنين ، وان أئمة المساجد كانوا يختارون فى تلاوة القرآن الكريم الآيات التى تحض المؤمنين على قتال غير المؤمنن (٣٢) .

فتلك الانطباعات والصور التى ذكرناها تدلل على أن صدى محاولات بونابارت فى نفوس المسلمين كان منعدما خاصة اذا أخذنا فى اعتبارنا أن مصر كانت تعيش آنذاك جوا دينيا اسلاميا متزمتا (٣٣) يرى أن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى ، سلطانها هو سلطان المسلمين ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت عند المصريين وكانت ثقافتهم دينية اسلامية ، وفى هذا الجو هبط الفرنسيون أرض مصر وأصبح بونابارت على رأس الحكم وهو ذا الذى لا يدين بالأسلام وليس عثمانيا ولا تركيا وانما هو نصرانى أوربى لذلك فان اختلاف

---

(٣١) نقولا الترك ـ ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ص ٤٥ ـ ط باريس ١٨٣٩ .

(٣٢) د. عبد العزيز الشناوى ـ صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣٣) الزميت : الحليم الساكن ، القليل الكلام ، ورجل متزمت وفى صفة النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان من أزمتهم أى من ارزنهم واوقرهم ـ مادة زمت : لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ١٨٥٩ دار المعارف بمصر .

الدين ظل من الأمور التى يستحيل معها وجود تعايش سلمى بين الفرنسيين والمصريين (٣٤) .

وأما الشق الثالث والأخير من السؤال والخاص بمدى صدق بونابارت فيما أذاعه على أهل مصر وود اشاعته بينهم .

ويردبونابارت بنفسه على ذلك التساؤل فيقول بعد أن سخر من هذا المنشور (٣٥) حينما أعيدت تلاوته عليه وهو سجين فى منفاه فى سانت هيلانه : ان هذا المنشور قطعة من الدجل (٣٦) ، فلو أضفنا الى ذلك القول موقف الثورة الفرنسية وتأثرها ببعض الأحزاب التى نادت بالغاء الدين المسيحى فى فرنسا واحلال عبادة العقل محله ، وأنه على الانسان أن يعبد العقل والعقل هذا ممثل فى سيدة ، وما فى هذه المعتقدات من مظاهر الفسق والمجون ، وأن تلك الثورة وقد تجهمت للديانات السماوية بوجه عام ، وبونابارت لم يكن له اعتقاد دينى صحيح حيث قرر فى مذكراته أن الجيش الفرنسى لم يمارس أى عبادة منذ قيام الثورة الفرنسية لأدركنا أن بونابارت قد كان ممثلا استغل الدين وتاجر به والأديان مما فعله براء .

ولا غرابة بعدئذ فى أن نجد المصريين يناصبون بونابارت وحملته العداء فيثورون ضده ، ولا عجب فى أن تكون رؤيتهم له أنه مخادع « يقوم بخداعهم ريثما يتملك » أما حقيقته فهو من وجهة نظرهم « نصرانى ابن نصرانى » (٣٧) .

أما عن ثورة المصريين على الفرنسيين المحتلين فيقول كلوب بك « ... والسبب الدينى وحده هو الذى يستفز المصريين الى العصيان،

---

(٣٤) د. عبد العزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص ٦٥ .

(٣٥) المنشور الموجه الى شعب مصر والذى ذكرنا فقرة منه .

(٣٦) د. عبد العزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص ٥٠ .

(٣٧) د. عبد العزيز محمد الشناوى ـ صور من دور الأزهر ـ مرجع سبق ذكره ص ٦٥ .

كما يدل عليه مالا يزال حاضرا فى الأذهان لقرب عهده من توصيل الكذابين وفى مقدمتهم المهدى الى جمع شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لاغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها » (٣٨) .

ويتضمن هذا القول عدة اتهامات ، منها اعتبار الأبطال الذين ثاروا لطرد المستعمر من بلادهم عصاه ، ومنه اتهام الزعماء المشايخ علماء الأزهر الذين قادوا ثورة القاهرة الأولى بالكذابين ولا يخفى مرمى كلوت بك من اطلاق كلمة « فلاحين » بمفهومها الذى ساد عصر كتابة هذا الكتاب وما تحمله من هوان ، ولا يتوقع أن يعد كلوت بك أولئك الثوار وقوادهم أبطالا قوميين مثل الذين حطموا سجن الباستيل ابان الثورة الفرنسية ، لأن الروح الصليبية التى تسيطر على فكر الغرب لغة وكتابة تعمى أبصارهم عن رؤية الحق وتصم آذانهم عن سماع صوت العقل والمنطق ، وكان من غير المستغرب أن يختص بونابارت — ابان تلك الثورة — الأزهر بنصيب وافر من قنابل مدفعيته وفساد جنده وأعمالهم التخريبية اللاانسانية ثم يكشف بونابارت عن وجه صليبى سافر قبيح فيصدر أوامره فى ٢٢ ، ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م « ١٣ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ » الى القائد العام بأن يهاجم بحسفة عاجلة الحى الثائر « الأزهر » وأن يضرب الجامع « الأزهر » بالمدفعية وأن يوزع مدفعيته بصورة تضعها فى أفضل موقع يمكنها من اصابة الجامع الأزهر « ليكون الضرب أشد أثرا » (٣٩) .

ثانيا : حملة فريزر مارس ١٨٠٧ م :

كان نصيب حملة فريزر فى كتاب كلوت بك ضئيلا ، فلم ير أمرا يستحق الذكر من أحداثها سوى أن « الموسيو دروفتى قنصل فرنسا

---

(٣٨) كلوت بك — مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٠٣ .

(٣٩) د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ص ١٢٦ .

كان خير معوان لمحمد على على تذليل ... المصاعب بما قدمه له من الأراء السديدة والنصائح النافعة وهو الذى يرجع اليه الفضل فى رسم خطة الدفاع التى جاءت ... بالثمرات الطيبة » (٤٠) .

ودور شعب مصر فى الدفاع عن بلاده ضد الانجليز أشهر من أن يعرف به أو يذكر ولكن سنعرض سريعا لبعض المواقف الشعبية المهمة والرئيسية التى سجلها المؤرخون .

فمنذ وصول حملة فريزر الى الاسكندرية واستسلام أمين آغا الفريزر ودخول الأنجليز المدينة فى ٢١ مارس ١٨٠٧ م أخذ زعماء الشعب يجتمعون ويتشاورون حتى استقر رأيهم على دعوة الشعب الى التطوع للدفاع والزود عن البلاد ، بينما كان محمد على فى الصعيد يخوض حربا ضد المماليك(٤١) .

وفى ٣١ مارس ١٨٠٧م دخل الانجليز رشيد وكان شعب مصر من الأهالى قد وقف مترصدا للغزاة فى « الأزقة والعطف وحقيقان البيوت ، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فالقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين ، بعد فرار بعضهم ... وفى مصر توأصل الشعب استعداده تنفيذا لتوجيهات الشيخ عمر مكرم — نقيب الأشراف — حتى مجاورى الأزهر » تركوا دروسهم كما توقف المشايخ عن التدريس وانشغل الجميع بمستقبل البلاد ، وازداد حماس الأهالى ضد الأنجليز فالتقوا حول مبدأ واحد وهو أن هؤلاء الأنجليز

---

(٤١) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ص ٥٣ .

(٤٠) كلوت بك — مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٦٥ .

« أعـداء الدين والمـلة وأخصـام السلطان فيجب على المسـلمين دفعهم » (٤٢) ٠

أما دور العساكر فعلى الرغم من أثره فى بعض الأحيان الا أن مضايقاتهم للأهالى فى البلدان التى مروا بها فى روايات الجبرتى على دورهم ، فيقول بأنهم حينما نزلوا الى بولاق « حصل منهم الانزعاج ٠٠ والقهر ٠٠ والتعدى على زرعات الأهالى فى جزيرة بدران ، أما مناطق منية السيرج وشبرا والزاوية الحمراء والمطرية والأميريه فقد تجاوزت أفعالهم التعدى على المزروعات اذ قاموا بخطف المـاشية « وفجروا بالنساء وافتضوا الأبكار ، ولاطو بالغلمان وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم » يقول الجبرتى معلقا « ٠٠٠ وهكذا تفعل المجاهدون » ويصور حال الأهالى أمام تعديات الجند فيقول « ولشدة قهر الخلائق وقبح أفعـالهم تمنـوا مجيىء الافرنج من أى جنس كان وزوال هؤلاء الطوائف الخـاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعـة ٠٠٠ اذ كانوا يصرخون ٠٠ على مسمع منهم فيزداد حقدهم ويقولون أهل هذه البلاد ليسوا بمسلمين لأنهم يكرهوننا ويحبون النصـارى ويتوعدوهم اذا خلصت البلاد لهم » (٤٣) ٠

أما دور قنصل فرنسا فيقول عنه الجبرتى « طلع الباشـا الى القلعة وصحبته قنصل الفرنساوية ويهنـدس معـه الأماكن ومواطن الحصار والقنصل المذكور مظهر الاهتمام والأجتهاد ويهتبل الأمر ويبذل النصح ويكثر من الذهاب والاياب » (٤٤) ٠

---

(٤٢) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ١٨١ : ١٨٣ ٠

(٤٣) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٠ ٠

(٤٤) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩١ ٠

ويلخص الجبرتى أمر حملة فريزر عن دور محمد على « .. ان محمد على لما بلغه حصول الانجليز على الأسكندرية وكان يحارب المصريين « المماليك » ويشدد عليهم فعند ذلك انحلت عزائمه وارسل يصالحهم على ما يريدونه .. وثبت فى يقينه استيلاء الانجليز على الديار المصرية وعزم على العود متلكئا فى السير يظن سرعة ورودهم الى المدينة « القاهرة » فيسير مشرقا عن طريق الشام ويكون له عذر بغيبته عن الحملة ، فلما وصلت الشرذمة الأولى من الانكليز الى رشيد دخلوها من غير مانع وحبسوا أنفسهم فيها فقتلوا وأسروا وهرب من هرب ووصلت الرءوس والأسرى ، فعند ذلك تراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك فى الانجليز وتجاسروا عليهم وكذلك أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور ، فلما وصلوا الى متاريس الانجليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم ، وترتيبهم وصدقوا فى الحملة عليهم وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان فلم يلتفوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرءوس وفر الباقون الى .. الاسكندرية ... » يقول الجبرتى فى تعليق يشير الى الحسرة « ... وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك » (٤٥) .

---

(٤٥) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، وعن فظائع جند محمد على وانتهاكهم حرمات الأهالى انظر تقويم النيل جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وهكذا ضحى شعب مصر دفاعا عن بلاده بكل غال ونفيس ،بينما ذاق بعض الأهالى ويلات الجند من تخريب وتدمير وتعديات وانتهاك لحرمات ، ولم يذكر لهم شيء يشكرون عليه ، وها هو كلوت بك يكتب بلسان حال سيده فيشيد بالدور الذى لعبه دور فتى فى تحمل عبء الدفاع عن مصر الى جانب محمد على متناسيا دور المصرى فى الدفاع عن بلاده على الرغم من أهمية وضرورة ذكر ذلك الدور لمن يتحدث عن تاريخ مصر فى تلك الفترة •

ثالثا : « سكان مصر » :

يتحدث كلوت بك عن سكان مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فيقول : « وسكان مصر الآن يتألفون من أقباط وعرب ويهود ويونان وأتراك ، وجركس وأحباش ، وسودانيين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومن جاليات أوربية » (٤٦) كما يذكر فى موضع آخر أن الأقباط هم أقدم سكان القطر المصرى (٤٧) •

والقول الأول ينطوى على عدم دقة فأول ما يتبادر الى ذهن قارئه أن هذه الأجناس تمثل نسبا متقاربة فى عددهم ولكن واقع الأمر غير ذلك ؛ فقد تضمن كتاب كلوت بك احصائية تقريبية لعدد سكان مصر بلغ عددهم فيها ثلاثة ملايين نسمة تقريبا(٤٨) ، وعلى الرغم من أن تقويم النيل قد أورد احصائية احمالية لسكان مصر فى سنة ١٨٤٨ بلغ عددهم فيها أربعة ملايين ونصف تقريبا ، فانا سنحاول عقد مقارنة بين طوائف مجتمع مصر حسب الاحصائية التفصيلية التى أوردها كلوت بك •

---

(٤٦) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٢١٧ •
(٤٧) كلوت بك ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣١ •
(٤٨) كلوت بك ـ المرجع السابق جـ ٢ ص ٧ ، ٨ •
(٤٩) أمين سامى تقويم النيل جـ ٢ ص ٥٨٥ •

النـــوع	العـــدد	النسبة المئوية الى مجموع سكان مصر
مصريون مسلمون	٢ر٦٠٠ر٠٠٠	٨١٪ تقريبا
مصريون نصارى	١٥ ر٠٠٠	٥٪
عرب بدو	٧٠ر٠٠٠	٢ر٣٠٪
سـودانيون	٢٠ر٠٠٠	٨ر٠٪
أتـراك	١٢ر٠٠٠	٤ر٠٪
يهـــود	٧ر٠٠٠	٢١ر٠٪
أجناس أخرى	١٤٠ر٠٠٠	٥ر٤٪ تقريبا

وتكشف لنا هذه الاحصائية الفرق الشاسع بين نسب الطوائف التى يتكون منها المجتمع المصرى ، الأمر الذى يستدعى أن تكون العبارة الأكثر ملائمة لهذا التوزيع العددى على النحو التالى : وسكان مصر يتألفون من عرب مسلمين وأقليات من النصارى والعرب البدو والسودانين والأتراك وغير ذلك .

أما قول كلوت بك : ان الأقباط هم أقدم سكان القطر المصرى فهو أمر استغرق الكثير من جهد الباحثين فى الدراسات الأنثروبولوجية وخلاصة ما قالوه حول هذا الموضوع : أنه ينبغى التسليم بأن سلالات أو جماعات عديدة قد نزلت أرجاء الوادى على مر العصور ولابد أنها أضافت الى السلالات القديمة عناصر جديدة .

ولعل من المفيد التفريق بين عناصر نزلت واستوطنت وبين عصابات اتت للغزو والسلب ثم انجابت عن البلاد وعادت أدراجها ، ذلك لأن العناصر التى كانت تدخل البلاد من الأقطار المجاورة بصورة مسالمة

أو تنشد التجارة أو الالتجاء كانت تندمج فى السكان على مدى القرون وهؤلاء من العناصر المهمة فى تأثيرها على تكوين السكان فى مصر •

وفى جملة ما تركه المصريون من الرسوم صورة تحكى مظهر الشعوب الأربعة ذات الصلة بوادى النيل •• وقد كانت مصر فى تاريخها الطويل ومنذ عهد النشأة تفد اليها عناصر من الشرق والغرب والجنوب ، وقد امتاز الوافدون من الشرق بكثرتهم وقد بدا وفودهم قبل التاريخ المكتوب بزمن طويل جدا وأكبر دليل على هذا أن لغة مصر القديمة قد طبعت بالطابع السامى فى وقت متقدم جدا ، وقد دامت الهجرة واتصلت فى كل عصر حتى أصبحت مصر وجزيرة العرب قطرين مرتبطين بأقوى الوشائج وبديهى أن هذه الصلاه اشتدت وقويت بعد الاسلام فعروبة مصر ليست ظاهرة حديثة ولا ترجع لعهد الفتوح الأسلامية بل ترجع الى ما قبل التاريخ المسجل والمكتوب •

وهكذا يتألف سكان مصر من الجماعات الأولى التى نزلت الوادى وما أعقبته من نسل على مدى السنين ومن سيل لم ينقطع من المهاجرين من جزيرة العرب وبعض النازحين من شمال افريقية هذه هى العناصر الرئيسية التى تشكل شعب مصر •

وجميع الكتاب الذين تناولوا موضوع سكان مصر بالدراسة الأنثروبولوجية قد قرروا أنه ليس هناك أى فرق بين القبطى والمسلم، ولا عبرة بما يزعمه المرجفون خلاف ذلك ، والأختلافات التى نجدها فى السحنة عند احدى الطائفتين نجدها أيضا عند الطائفة الأخرى (٥١)•

---

(٥٠) د• محمد عوض محمد ـ الشعوب والسلالات الافريقية ص ٣٢٨ : ٣٣٥ سلسلة دراسات افريقية ـ العدد رقم (١) ـ الدار المصرية للتاليف والترجمة ـ مصر يونية ١٩٦٥م •

ومما لاشك فيه أن كلوت بك لم تتوفر لديه وسائل أو امكانات الدراسة التى توفرت للمختصين الذين وصلوا الى النتائج المذكورة ، فليس من الحيدة اصدار مثل ذلك الحكم الذى يعد من قبيل المغالطات التى لا تسلم من غرض .

ويتحدث كلوت بك عن نصارى مصر فيقول : « ولقد تأثرت طباع الأقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثنى عشر قرنا ، وغنى عن البيان أنهم حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليونانى والتكيل بدولة الروم لما بينها وبين المصريين من الاختلافات الدينية ، كانوا بحيث لا يقدرون عواقب هذه الخيانة المخزية وسوء تأثيرها فى مستقبلهم فلقد ظنوا أنهم يحصلون بمعاهدة يبرمونها على كثير من الضمانات والحقوق والمزايا ، ولكن ما كاد فاتحوا مصر يستولون عليها ويستتب لهم الأمر فيها حتى نقضوا عهدهم وأخلفوا وعدهم وأثقلوا كواهلهم .. فكان ما حاق بهم من ذلك جزاء ايثارهم أعداء المسيحية على أبناء دينهم من أروام القسطنطينية فى تولى أمرهم (٥١) .

ويمكن أن نقسم الاتهامات التى تضمنتها رواية كلوت بك الى أربعة أقسام :

١ — اتهام لنصارى مصر بالخيانة .

٢ — اتهام الحكومات الاسلامية فى مصر باضطهاد الأقباط وظلمهم طيلة اثنى عشر قرنا من الحكم الأسلامى .

٣ — اتهام للادارة الاسلامية فى بداية الفتح الأسلامى بعدم الوفاء بما عاهدوا عليه أهل البلاد .

---

(٥١) كلوت بك — مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٣١ .

٤ ــ اتهام جميع المسلمين بأنهم أعداء المسيحية •

أما عن الاتهام الأول الموجه نحو نصارى مصر فان الرد عليه يتلخص فيما يلى : لقد كان واقع مصر تحت الحكم الرومانى واقعا قاسيا مؤلما اذعم الاضطهاد الدينى بصورة جعلت نصارى مصر فى حالة من الأستعداد لتقبل أى نوع من أنواع الحكم ظالما شعروا أن هذا سيخلصهم مما هم فيه من اضطهاد وعنت ولقد حفلت كتب المؤرخين بكتابات وروايات توضح ذلك القهر وتلك المعاناة ، التى ترتب عليها فرار رجال الدين من قسوة الرومان(٥٢) •

ويذكر ابن عبد الحكم أن القبط قد ساعدوا العرب فى فتح الفرما مساعدة كبيرة وتعاونوا معهم لأنهم كانوا يعملون على التخلص من حكم الروم (٥٣) •

ويسجل بعض المؤرخين حال نصارى مصر عشية الفتح الاسلامى فيقول : ما أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه ، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم وازدادت معاناتهم من حماقات البيزنطيين ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه الى عهد من السلام والاطمئنان وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكم الدنيا واضطهادهم على يد أهل الدين فأصبحوا وقد فك قيدهم فى أمور الدنيا وأرخى من عنانهم ، وأما دينهم فقد صاروا فيه الى تنفس حر وأمر طليق يقال أن حكامهم الجدد قد أدخلوا الى الأرض دينا غريبا غير دين المسيح وهذا حق غير أنهم لم يروا فى ذلك الا عدلا من الله اذ أجمع الناس على

---

(٥٢) د٠ مصطفى طه بدر ــ مصر الاسلامية ج ١ ص ١٣، ١٤ ، طبعة ثانية ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٥٩م •

قول واحد فقالوا : ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون الا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر، هكذا كان الناس ، وهكذا كانوا يحكمون ... ولا يستطيع التاريخ الا أن يحكم بأن العسف وسوء الحكم هما اللذين هويا بدولة الروم بغير شك الى الضياع وزوال السلطان(٥٤) .

وهكذا كانت تصرفات نصارى مصر نابعة من نقمتهم على الحكم الرومانى ، وكانت بعض حالات التعاون التى أبدوها دليلا على ترحيبهم بحكم يخلصهم من نير استعباد وظلم الرومان . ولا يعد من قبيل الخيانة أن يحاول شعب التمسك بما بقى له من كرامة أو حرمة لم تنتهك بعد ؛ وليس من قبيل الخيانة أن يخلص نفسه من حكم سامه الخسف وشرد كبار رجال الدين .

أما الرد على اتهام الحكومات الاسلامية فى مصر باضطهاد النصارى المصريين طيلة اثنى عشر قرنا فنقتبس له بعض أقوال المؤرخين العرب والغربيين : يقول بعض المؤرخين : لقد عاش القبط فى ظل الحكم الاسلامى حياة سهلة وبعيدة عن الإضطهاد بصفة عامة ، وقد عاملهم العرب من أول الأمر معاملة طيبة وحمدوا لهم مساعدتهم ضد الروم .

ويبدو لين العرب وعطفهم على القبط فى أقوال عمرو بن العاص وفى أفعاله فقد قال عمرو فى احدى خطبه مستوصيا جنده بأهل الريف من الأقباط المصريين : واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ،

---

(٥٤) د. الفريد ج . بتلر ـ فتح العرب لمصر ـ عربة محمد فريد أبو حديد جـ ٢ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ . الكتاب رقم ٢٨ من سلسلة تاريخ المصريين ـ الهيئة العامة للكتاب ـ مصر ١٩٨٩ .

حدثنا أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم(٥٥) وقد أعاد عمرو بن العاص بطريك القبط بنيامين الى كرسيه فى الاسكندرية بعد استبعاد دام ثلاثة عشرة سنة ، كما أحسن استقبال رهبان أديرة وادى النطرون ومنحهم أمانا لأنفسهم وأديرتهم(٥٦) .

وقد سار الولاة الذين حكموا مصر بعد عمرو بن العاص على سيرته فلم يتدخلوا فى انتخاب البطاركة وتركوا الأمر للأساقفة ليقوموا به طبق قوانين الكنيسة ، وكانوا يشجعون المذهب الذى يدين به الأقباط وأقام القبط احتفالاتهم الدينية وكانوا يشاركونهم الإحتفال فى بعض الأعياد(٥٧) .

كما استعان العرب بالأقباط فى ادارة شئون مصر وأسندت المناصب الإدارية المختلفة اليهم ، كما ألفوا من القبط فرقا عسكرية من المتطوعة كانت بمثابة قوات مساعدة تستخدم فى أوقات الضرورة وتقيم على الحدود وتصرف لهم الرواتب ، كما حل القبط محل الموظفين الرومان ، وشغلوا الكثير من المناصب المالية والادارية ، وكانوا رؤساء للادارات المالية وجباه للضرائب(٥٨) .

---

(٥٥) جلال الدين السيوطى ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة ج ١ ص ٦٧ .

(٥٦) المقريزى ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج ١ ص ١٨٦ طبقة بولاق ١٢٧٠هـ .

(٥٧) سيدة اسماعيل الكاشف ـ مصر فى فجر الاسلام ص ١٩١ : ١٩٦ ـ القاهرة ١٩٤٧م .

(٥٨) د. مصطفى طه بدر ـ مصر الاسلامية ـ مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٨٦ .

وقد ظلت اللغة القبطية أداة للحديث ، بل أعيدت لتحل محل اليونانية التى كانت تقرأ بها الطقوس الدينية ، وأصبحت اللغة القبطية تتبوأ مكانة طيبة واحتفظت أقاليم مصر ، بمسمياتها القبطية ؛ وأعيدت الأسماء المصرية التى كان الرومان قد غيروها(٥٩) •

وقد ذكر أن بعض الأساقفة النسطوريين قد كتب بعد الفتوحات العربية لمصر بخمسة عشر عاما يقول : ان العرب الذين وهبهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحى قط ، بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسيين ويقدمون الهدايا لكنائسنا وأديرتنا(٦٠) •

ومن يستعرض بناء الكنائس للنصارى منذ الفتح الاسلامى وفى سنينه الأولى يظهر له أن القبط نالوا فى أول الأمر كل ما يتصوره العقل وتبيحه الحرية(٦١) •

هذه جوانب تكشف لنا حالة القبط ــ الدينية على وجه الخصوص ــ تحت الحكم الاسلامى الأمر الذى يكذب مزاعم كلوت بك ويجعلها من قبيل الإفتراء واصدار الأحكام الشاملة العمومية دون تروٍ أو تدقيق •

أما اتهام كلوت بك للمسلمين بعدم الوفاء بما عاهدوا عليه أهل البلاد فهو أمر يقوم على الاعتقاد بوجود معاهدة بين العرب الفاتحين وبين نصارى مصر وهذا الأمر محل اختلاف عند بعض المؤرخين وانكار عند معظمهم •

---

(٥٩) سيدة اسماعيل الكاشف ــ المرجع السابق ص ١٩٦ •
(٦٠) د• مصطفى طه بدر ــ مرجع سبق ذكره ــ جـ ١ ص ٨٧ •
(٦١) بتلر • مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ٣٩٠ •

يقول بتلر ــ لم تكن هناك معاهدة بين العرب من جانب والقبط من جانب آخر والمعاهدة كانت بين رجال الدولة الرومانية فى مصر من ناحية والعرب من ناحية أخرى ، وقد كان رجال الدولة الرومانية فى مصر يتعاهدون مع العرب نيابة عن أهل مصر جميعا سواء فى ذلك القبطى الرومى واليهودى وسوى هؤلاء اذ كانت المعاهدة بين طرفين متحاربين وكان الجيش المدافع عن مصر جيش الدولة الرومانية ، أما القبط فلم يكونوا أصحاب الدولة والجيش والحصون(٦٢) ٠

وقد يرد على قول بتلر بأن المعاهدة قد تضمنت بنودا تتعلق بشعب مصر والقبط جزء منه ، فان تاريخ مصر الاسلامية مفتوح الصفحات يتحدث عن حال مصر تحت الحكم الاسلامى وما عاشه أهلها من حرية دينية ورخاء اقتصادى وعدالة اجتماعية يتحدث المقريزى عن حال القبط تحت الحكم الاسلامى فيقول : لقد عاش القبط حياة سهلة بعيدة عن الإضطهاد بصفة عامة ، وقد عاملهم العرب من أول الأمر معاملة طيبة وحمدوا لهم مساعدتهم ضد الروم ولم يخرجوا عن شروط الصلح طبقا لمن يقول ان مصر فتحت صلحا وعاملوهم طبقا لشروط الصلح وان كانت بلادهم فتحت عنوة طبقا لمن يقول انها فتحت عنوة(٦٣) ٠

وهذه الأقوال تبين لنا أن العرب المسلمين قد كانوا أوفياء بما عاهدوا عليه الرومان فيما يتعلق بأهل مصر ، أما اطلاق كلوت بك كلمة (أهل البلاد) ويقصد بها القبط فقط فقول مبالغ فيه ويحمل اجحافا بالطوائف الأخرى التى كانت موجوده فى مصر كاليهود والأرمن

---

(٦٢) بتلر ٠ المرجع السابق ج ٢ (الملحق السابع) ص ٤٩٩٩ ٠

(٦٣) المقريزى ــ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج ١ ص ١٨٦ بولاق ــ ١٢٧٠هـ ٠

والقبائل العربية التى أشرنا الى جودها فى مصر قبل خضوعها الحكم الاسلامى .

أما اتهام كلوت بك لجميع المسلمين بأنهم أعداء المسيحية ، فهذا قول يحمل تعصبا وجمودا يعيد الى الأذهان فكر أوربا التى شنت حروبا أسمتها الحروب الصليبية كان هدفها الشرق الاسلامى بمدنه وسكانه وحضارته ، وعلى الرغم من أن كلوت بك يتحدث بتلك النهجة الصليبية المسرفة فمن المدهش أنه يقول : للعثمانيين فى حكمهم على الأوربيين أفكار مستغربة ومذاهب لا مثيل لها فهم يعتقدون أننا أشهرنا الحرب عليهم فانما نشهرها على ديانتهم ، وأن الغرض الذى نرمى اليه هو ازالة معالمها من الوجود(٦٤) ... يستنكر كلوت بك على العثمانيين — وربما قصد المسلمين — نظرة الخوف على دينهم (من الأوربيين ، أما كلوت بك فما هى دوافعه كأوربى فرنسى نصرانى من وراء ذلك القول ؟ ألم يدر بخلده أن الحكم على علاقة مسلمى مصر أمر متروك لنصارى مصر أنفسهم ؟ وأنه قد أقحم نفسه فيما ليس له ؟ أم أسرف فى أحلام اليقظة فاعتقد أن نصارى مصر يرون رأيه .

ولسنا فى حاجة الى تعريف بالاسلام وعلاقته بالديانات الأخرى وكفى أن نشير الى الوحدة الموضوعية التى تنتظم سائر رسالات السماء التى تدعوا كلها الى توحيد الله وعدم الإشراك به وتجعل جميع أنبياء ورسل الله عليهم السلام يدعون أقوامهم الى الاسلام الذى هو دين الله على الأرض حيث بشر به عيسى عليه السلام ، ويقول الله تعالى (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون(٦٥)) .

---

(٦٤) كلوت بك — مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ١٢٦ .

(٦٥) سورة المائدة : الآية ١١١ .

نقتبس هنا قولا لأحد الأساقفة النسطوريين والذى كتب بعد الفتح الاسلامى لمصر بخمسة عشر عاما يقول : ان العرب الذين وهبهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لايحاربون ديننا المسيحى قط بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقدبسين ويقدمون الهدايا لكنائسنا وأديرتنا(٦٦) .

وقد سجل المؤرخون العرب والمستشرقون حالة الحرية التى عاشها غير المسلمين فى مصر بصورة يستعصى حصرها ، ولم يخل كتاب تحدث عن تاريخ مصر الإسلامية من الاشارة الى تسامح المسلمين فى معاملتهم مع غير المسلمين فى مصر ، وتلك أمور تدحض الأحكام العمومية التى أطلقها كلوت بك .

وقبل أن نترك هذه الجزئية من البحث نذكر قول كلوت بك (لا يختلف اثنان فى أن شطرا كبيرا من الأقباط اعتنقوا الإسلام فى أول عهد الفتح العربى طوعا أو كرها فالتحم الغالبون بالمغلوبين واختلطوا بهم(٦٧) .

ومن الملاحظ ان كلوت بك يطلق هذا الحكم مصدرا اياه بقوله (لا يختلف اثنان) أى أنه من المسلمات ثم يقرر بأن دخول بعض المصريين فى الإسلام كان كرها ، وقضية الاكراه على الدخول فى الاسلام قضية تتعانق مع الرؤية الصليبية التى تقول بانتشار الاسلام بحد السيف ، وتلتقى أيضا مع ما قرره كلوت بك من قبل من أن الاسلام عدو المسيحية . وليس المجال هنا مجال رد على هذه المقولات ، ولسنا فى مجال التأكيد على أن الاسلام لم ينتشر بحد السيف فهذا أمر

---

(٦٦) د. مصطفى طه بدر ـ مصر الاسلامية جـ ١ ص ٨٧ .

(٦٧) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٢١٩ .

بديهى ، وأمر التصدى لمثل هذه الافتراءات له رجاله المتخصصون ، ولكنا سنذكر هنا جانبا من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالمصريين طواعية الى الدخول فى الاسلام .

نود أن نشير أولا الى أن اتساع مساحة الإسلام فى مصر — وخاصة على حساب النصرانية — هو الأمر الذى أقلق بعض المؤرخين الغربيين الأمر الذى جعلهم يبحثون عن مسوغات لذلك الدخول الجماعى من القبط فى الإسلام وينقبون عن مبرر لاتساع رقعة المسلمين فى المجتمع المصرى ، فاندفعوا الى القول بأن اثقال كواهل القبط بالضرائب وسوء حالتهم الاجتماعية كان سببا فى اقبالهم على الإسلام(٦٨) .

ويمكن أن نوجز أسباب اقبال المصريين على الدخول فى الإسلام فيما يلى : —

١ — شعور المصريين بعدة مشاعر طيبة نحو العرب يأتى فى مقدمتها أنهم هم الذين خلصوهم من اضطهاد الرومان وأبدلوهم بعد خوفهم أمنا ، وبعد ظلمهم حرية ، وبعد فقرهم غنى فضلا عن علاقة العرب بمصر قبل الإسلام والتى لم تجعل من العرب شعبا أو دولة أجنبية أتت لتحتل بلادهم أو تستعمر أوطانهم .

٢ — وفر عنصر القدوة فى المسلمين الفاتحين ، أولئك الذين التزموا بالمنهج الإسلامى كاملا فظهر ذلك فى عدالة حكمهم وصدق وعودهم وتنظيم ادارتهم واستقامة تشريعاتهم ووحدة قوانينهم ، الأمر الذى حبب المصريين فى اعتناق ذلك الدين الذى جعل العرب على ذلك المستوى من الخلق والسلوك .

---

(٦٨) د. الفريد ج. بتلر — فتح العرب لمصر ص ٣٤٠ . ٣٤١ .

٣ ــ كون الأقباط ــ آنذاك ــ بعيدين عن النصرانية الحقة بصورة جعلتهم غير مستمسكين بدينهم ، وبدرجة جعلت عقيدتهم لا تقوى على المقارنة بالإسلام الصحيح السمح مما جعلهم يرغبون فى الدخول فى الاسلام ، كما أن هذا الأمر جعل من السهل عليهم أن يهجروا دينهم الى الاسلام حتى يفتح ذلك الباب أمامهم لسلوك المناصب الادارية والاعفاء من الجزية التى فرضها الإسلام على الذميين مقابل الدفاع عنهم ، وهذه الأمور منفردة لم تكن كافية لجعل نصارى مصر يتركون دينهم لو كانوا على درجة قوية من التمسك به وانما بعدهم عن النصرانية الحقه فتح أمامهم المجال للمقارنات التى كانت توضح أمامهم أرجحية الإسلام فاتجهوا اليه ــ طواعية ــ فرادى وجماعات(٦٩) .

ومما يقوله كلوت بك فى حديثه عن سكان مصر(٧٠) (واذا بحثت عن أسباب نقص عدد سكان القطر المصرى منذ عهد عمرو بن العاص فانك لا تلبث أن تتأكد رجوعها كلها الى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع الى الفوضى التى أغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شئونها بالعبث والإفساد حتى ضاع الغرض النافع المقصود منها)(٧١) .

ويكمل كلوت بك عبارات الاتهام للحكم الإسلامى ، ولم يستوقفه لحظة فى تاريخ مصر الذى يتحدث عنه عصر ما قبل التاريخ الا فترة الحكم الإسلامى منذ عهد عمرو بن العاص ، وكأن تلك الفترة هى

---

(٦٩) د. مصطفى طه بدر ــ مصر الاسلامية جـ ١ ص ٩٧ : ٩٩ « بتصرف » .

(٧٠) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ١٠ .

(٧١) كلوت بك ــ المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠ .

عصر الابتلاء التى عانى شعب مصر ـ النصرانى ـ فيها من العيوب التى ذكرها كلوت بك والتى ألصقها بالحكم العربى الاسلامى ٠

ولم يستوقف كلوت بك حالة مصر تحت الحكم الرومانى على الرغم من اجماع المؤرخين (العرب والعربيين) على تردى أحوال شعب مصر تحت الحكم الرومانى فى كل جوانب حياته(٧٢) ، بل تحدث كلوت بك عن تلك الحالة السيئة فقال (وكان المصريون (تحت الحكم الرومانى) يدينون بالنصرانية ، ولا يعرفون غيرها لهم عقيدة، ولكنها كانت مهيضة الجانب محلة العرى بما غشيها من افتراق أهلها شيعا متعادية ومذاهب شتى(٧٣)) ٠

كما أن الأمور التى تدعو للدهشة أن كلوت بك يتحدث واثقا أن سكان مصر قد اعتراهم النقص منذ الحكم الاسلامى لمصر ، وهذا أمر يحتاج رصده الى تعداد مستمر أو فى أوقات محددة لبيان معدل ذلك التناقص ، واذا كان كلوت بك يقول فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى وبعد فتح مصر بأكثر من اثنى عشر قرنا ـ ولم يكن تقدير سكان القطر المصرى مبنيا على شىء من الدقة والضبط ، وان من المستحيل استصدار تعداد صحيح لمصر لعدم وجود نظام تضبط بمقتضاه

---

(٧٢) تحدثت كل المصادر التاريخية العربية والغربية ، القديمة والحديثة عن مصر تحت الحكم الرومانى وذكرت تفاصيل اضطهاد ومعاناة المصريين ٠٠ انظر من الكتب العربية تاريخ المسلمين لابن العميد حسن المحاضرة للسيوطى ، فتوح مصر لابن عبد الحكم ، ومن الكتب المترجمة الحضارة الاسلامية لآدم متز (ترجمة أبو ريدة) وفتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ومن الكتابات الحديثة مصر فى العصور الوسطى لعلى ابراهيم ، ومصر فى فجر الاسلام لسيدة اسماعيل الكاشف

(٧٣) كلوب بك ـ مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٦٣ ٠

الأحوال المدنية للسكان(٧٤) ، اذا كان هذا حال مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، فمن أين أتى كلوت بك بالاحصائيات التى كشفت أمامه تناقص شعب مصر ابان الحكم الاسلامى لها ؟

رابعا ــ شخصية محمد على كما يصورها كلوت بك :

يمكن لمن يقرأ كتاب لمحة الى مصر لكلوت بك أن يكون صورة معينة لشخص محمد على وذلك خلال وقفات تحليلية لشخصية الباشا قام بها المؤلف مركزا فيها على وجهة نظر شخصية ، وسنتناول بعض المواقف التى تعرض فيها كلوت بك لتحليل شخصية الباشا مع ربط ذلك بالأحداث التى تناسب ذلك التحليل .

١ ــ الأطماع التوسعية لمحمد على ودوافعها :

يتحدث كلوت بك عن الدوافع وراء توسعات محمد على فيقول : انما كان الباعث عليها قوة الشعور الفطرى بحفظ الذات ، لا الميل الى الاستفادة من البسطة فى الامتلاك والتوسع فى التسلط كما زعم بعض الزاعمين ، ومعلوم أن الرجل العبقرى ذا النية السليمة والسريرة الطيبة كان لا يسعه أن يسلك مع الباب العالى الا الخطة التى سار عليها محمد على وبلغ أقصى المدى(٧٥) .

وكان محمد على قد استولى على شبه الجزيرة العربية بعد أن أسقط الدولة السعودية الأولى وقد تم ذلك بعد أن طلب السلطان مصطفى الرابع ذلك ، ولكن محمد على لم يخض هذه الحرب لمصلحة تركيا وانما خاضها تثبيتا لمركزه واعلاء لشأن مصر ، ... وقد عظمت

---

(٧٤) كلوت بك مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٦ ، ٧ .

(٧٥) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٧٠ .

منزاته حيال تركيا بعد الحرب الوهابية ، وعلت مكانة مصر الحربية والسياسية وامتدت سلطاتها الى جزيرة العرب فانبسطت رقعتها واتسعت حدودها حيث لم تنسحب قوات محمد على من هذه الأراضى بل ظلت تحتلها وأخذت الحكومة المصرية تبسط سلطانها على أصقاع الجزيرة ، كما كانت تلك الحملة ذريعة لاطلاق يد حكومة محمد على لفرض المزيد من الضرائب على شعب مصر(٧٦) .

أما حرب الشام فيصح اعتبارها حربا دفاعية هجومية ؛ فهى دفاعية لأن محمد على يدرك سعى تركيا لاسترداد مركزها فى مصر ، فهو بهذه الحرب يدافع عن مركزه فى مصر وهى هجومية كان الغرض منها التوسع فى الفتح وفى السلطان فان محمد على كان يطمع فى ضم سوريا منذ سنة ١٨١٠م ، وكان يأمل أن يصل الى حكمها بموافقة السلطان العثمانى ودون حرب ، وقد سجل ذلك قناصل أوربا — وأصفياء جلساته — فكتب دورفتى قنصل فرنسا فى مصر الى حكومته فى ١٨١١م يقول : ان محمد على يطمع فى ولاية سوريا وقد قال لى يوما انه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزانة السلطان(٧٧) ، وكان محمد على قد طلب من الباب العالى خلال مساومات الحرب الوهابية أن يعهد اليه بولاية الشام وكانت حجته فى ذلك حاجته الملحة الى مدد بشرى منها لمعونته

---

(٧٦) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ص ١٢٦ ، ١٢٧ وانظر سياسة محمد على فى شبه الجزيرة العربية د. مالك محمد أحمد رشوان ص ٦٠ : ٦٦ رسالة ماجستير لم تنشر بعد .

(٧٧) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على — ص ٢٤٦ .

فى حرب الحجاز ، وظل طيلة حروبه فى الحجاز يساوم الباب العالى طمعا فى الظفر بولاية الشام سلما(٧٨) .

وقد أرسل محمد على قواته التى اجتاحت السودان وضم جنوب وادى النيل الى مصر ، وكانت نظرته التوسعية واضحة جلية سيطرت على كل تصرفاته فى حروبه فى شبه الجزيرة العربية ، وفى مساوماته ضم الشام ثم حروبه فى الشام وآسيا الصغرى وكان حب الاستزادة من البسطة والامتلاك والتوسع والتسلط أحد أهم الدوافع التى حركت قواد محمد على نحو الشرق والشمال الشرقى والجنوب .

٢ ــ محمد على بين الحاجات والوسائل :

يتحدث كلوت عن محاولات محمد على تحديث مصر واقامة أنظمة متطورة تحاكى أنظمة الغرب فى الزراعة والصناعة والجيش والتعليم والصحة وبعد أن يستعرض جانبا من جهود الرجل يقول : فاذا كان من المسلم به اعادة مصر الى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة والثروة فى سالف الأزمان فلابد من البدء قبل كل شىء بانشاء حكومة قوية على أسس وطيدة ، وهذا يدعو الى غض النظر والتسامح حيال الوسائل التى استعان بها محمد على فى تعزيز سلطته بالقوة التى تكفل لها الاستمرار(٧٩) .

ويبحث كلوت بك عن مخرج لسيده من مجموعة من الانتهاكات

---

(٧٨) دار الوثائق القومية ــ محافظ الحجاز ١٢٢٦هـ / دفتر امعية تركى ــ الوثيقة رقم ٦٠ من محمد على الى الباب العالى فى ٩ صفر سنة ١٢٢٦هـ ، وانظر أيضا محفوظات المعية السنية ــ الوثيقة رقم ١٣٨ ترجمة مكاتبة واردة من محمد نجيب الى محمد على فى ١٥ صفر ١٢٣٠هـ .

(٧٩) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ١١ .

السافرة للمبادىء الإنسانية التى قام بها محمد على بحجة الابقـــاء على سيادته على مصر والتى بدأت بالقضاء الجماعى على المماليك فى مذبحة القلعة ، حيث أراد محمد على أن يشعر كل أهل مصـــر أن هذه النهاية هى جزاء أى معارض يحاول الوقوف فى طريقه ، واستمرت تلك الانتهاكات ممثلة فى الشقاء الجماعى الذى حل بشعب مصر ممثلا فى الضرائب الباهظة والسخرة الجماعية والاحتـــقار والإزدراء فى وقت ارتفعت فيه أسهم غير المصريين وأصبحوا هم المرجع والمأوى والأصفياء والجلساء السادة فى هذا البلد ، ومن هذه الانتهاكات اجهاز محمد على المتعمد على الأزهر والقضاء على دوره السياسى والاجتماعى واضعافه دوره التعليمى بعد ازدواجية التعليم كل هذه الأمور التى تعد انتهاكا صارخا لحقوق شعب مصر على يد ذلك الحاكم يراها كلوت بـــك من قبيل الأشياء التى يغض النظر عنها وينبغى التسامح فيـــها لأ نها هى الوسائل الوحيدة الكفيلة بتهيئة الاستقرار لباشا مصر .

ويضيف كلوت بك : وليس بغارب عن فكر أحد أن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة من المبادىء التى تحق على البلاد المتوحشة التى يخضع كل شىء فيها لحكم الاستبداد الفعـــلى والتى لا تزال كلمة الحـــق العام فيها من الكلمات المجهولة أو من اللغو الباطل ، فمن عجز لمنطق وقلة الذمة وسوء النية أن يراد جعل الوالى مسئولا عما يعتور الأمـــة من الآلام الوقتية ويصيبها من الأضرار الزائلة التى يؤدى اليها تنفيذ مشاريعه الكبار ، وليست هذه الأضرار ، والآلام الا نتيجة الأمراض المزمنة التى أخذ على عاتقه تطهير مصر من أدرانهـــا وصـــيانتها من عواقبها الوخيمة(٨٠) .

---

(٨٠) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ١٢ .

ويتعرض كلوت بك هنا لنظرية سياسية مشهورة تقوم على « أن الغاية تبرر الوسيلة القدرة ، أو مجموعة الوسائل القذرة التى يلجأ اليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة ... وأن السياسة لا مكان فيها للأخلاق ، ويجوز لمن يريد انشاء دولة قوية وتدعيمها أن يلجأ الى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة وجميع أنواع الجرائم » (٨١) وتلك من المبادىء الهدامة التى تضمنها كتاب الأمير لنيقولا ميكا فيللى وقد رسم فيه صورة الأمير الناجح من وجهة نظره ، وقد أعجب بتلك الآراء الكثير من ساسة وقادة أوربا فيقال انه قد وجدت نسخة من كتاب الأمير ضمن مخلفات نابليون عقب معركة واترلو ؛ وكتب بينيتو موسوليني سنة ١٩٢٤ عن ذلك المذهب ما نصه « اننى أقرر أن مذهب ميكا فيللى تدب فيه الحياة الآن أكثر مما كانت تدب فيه منذ أربعة قرون من الزمان » (٨٢) مدللا بذلك على حيوية المذهب .

وقد أصبحت حتى يومنا هذا كلمة المكيافيللية Le Machiadelism مرادفة لمعنى التصرفات التى يشوبها الغدر والدهاء والأنانية والصفات التى نادى بها ميكافيللى وغدت كلمة ميكافيللى Machiaveliste تطلق على الشخص الذى يمارس فى حياته أسلوبا يقوم على الغدر والخيانة وما الى ذلك من عدم الالتزام بالمبادىء الخلقية ابتغاء الوصول الى تحقيق أهدافه فى الحياة(٨٣) .

وهكذا يذهب كلوت بك كل مذهب فى البحث عن مسوغ لسيده

---

(٨١) د. عبد العزيز الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ص ٥٧ دار المعارف مصر ١٩٦٩م .

(٨٢) د. عبد العزيز الشناوى ـ المرجع السابق جـ ١ ص ٦٦ .

(٨٣) د. عبد العزيز الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ص ٦٦ .

حتى يلجأ الى ذلك القول الممقوت وتلك النظرية الفاسدة ، ويذهب كلوت بك الى أبعد ذلك فيعتبر أن محمد على غير مسئول عن الأضرار والآلام التى لحقت بالشعب المصرى فى عصره ويرجع ذلك الى الأمراض المزمنة التى تعانى منها مصر وأن محمد على هو الذى حاول تطهير البلاد ، وقد وصل شعب مصر تحت حكم محمد على الى حالة يرثى لها فهو « لم يتحرر من الشقاء ، وانما وقع عليه الكثير من المظالم والارهاق ، بل ان الأعمال التى تمت فى عصر محمد على لم ينتفع بها هذا الجيل المعاصر له ، هذا فى الوقت الذى فدحته السخرة والارهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية ، حيث احتكر محمد على الحاصلات الزراعية ، والتجارة والصناعة وقد أساء هذا النظام الى الشعب اساءة كبرى لأنه ضرب عليه حجابا من الفقر والجمود » (٨٤) .

وقد ذكر كلوت بك من قبل أن حملة بونابرت أتت لتزرع بذور الحضارة فى مصر ، كما أنه شهد مولد الثورة الفرنسية وقيام الجمعية الوطنية الفرنسية بوضع دستور قام على مبادىء واعلان حقوق الانسان « العالمى » وقد أذيع ذلك فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ م وجاء فى مادته الثالثة : أن الأمة هى مبدأ كل سيادة وأصل كل سلطة . وجاء فى المادة الرابعة عشرة أن تقرير الضرائب لا يتم الا بواسطة أهل البلاد أو نوابهم ، وجاء فى المادة الخامسة عشرة : أن من الحقوق الأساسية للهيئة الاجتماعية حق محاسبة ومراقبة الموظفين العموميين (٨٥) .

---

(٨٤) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ ص ٦٦١ ، ٦٦٢ .

(٨٥) د. محمد صبرى ـ الثورة الفرنسية ونابليون ـ ط / أولى ـ دار الكتب سنة ١٩٢٧ ص ٤٨ وهـ ١ ل. فيشر تاريخ وربا فى العصر الحديث ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ص ١٥ ، ١٦ ط / سابعة دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٦م ، ومذكرات فى تاريخ أوربا الحديث ـ د. محمود صالح منسى ص ٢٣ ، ٢٤ .

وقد طبقت هذه البنود والمواد فى فرنسا بالفعل ، وكان من المعتقد أن يكون كلوت بك الذى عاش جو الحرية فى فرنسا الثورة أكثر حيدة فى حكمه على الأشياء وألا تعمه أيادى سيده عن الحقائق فتجعله يرتكب مثل تلك الأخطاء ويتعمد مثل تلك الأكاذيب وينتحل مثل تلك الأسباب الواهية ليبرأ ساحة سيده ويحمل العهود السابقة مسئولية التعاسة والمعاناه التى لقيها شعب مصر على يد محمد على .

٣ ـ قانون التجنيد :

يتحدث كلوت بك أحاديث متناقضة عن التجنيد وأسلوبه فى عصر محمد على فيقول « ان القوة الغاشمة فى مصر هى أسلوب جمع المجندين وهى فى مصر على أقصى ما يمكن أن يتصور من الوحشية والهمجية والقوة التى يرجع اليها فى تزويد الجيش باحتياجاته من المجندين فالتجنيد فى مصر من وجوه الظلم البين المليء بالاجحاف المتلف الضار ، ويصف كلوت بك مشهدا من مشاهد المصريين المتجهين لآداء الخدمة الوطنية فيقول : يتوجه بلوك من العساكر الى الى احدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بالقائه القبض عليهم بمجرد وصوله اليها وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربط بعضهم ببعض يسير بهم الى بندر المديرية يتبعهم أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين وهذا أسلوب همجى وسيىء للغاية (٨٦) ولو اكتفى كلوت بك بهذا الوصف الدقيق لبعض المآسى اليومية التى عاشها شعب مصر ابان حكم محمد على لكان منصفا ، ولكنه كعادته يبحث عن مسوغ لهذا التصرف .

يقول كلوت بك « ولقد كان من وراء تشكيل جيش منظم لمصر

---

(٨٦) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ١ ص ٢٦٩ .

على المثال الذى حبذه وتوخاه محمد على نتائج عامة جزيلة النفع أولا لأن هذا التشكيل كان من شأنه تعويد الأمة المصرية النظام اذ لم يألف سوى الاختلاف والفوضى ... ولم يعامل بغير الضراوة والأفتراس.. والسير بالعنف والشدة (٨٧) ، ويقول عن محمد على : لقد رفع من شأن الشعب المصرى بأن جعل له روحا وطنية استرد بها ما فقده من الثقة والاعتزاز بنفسه .

ثم يقول كلوت بك : ولا ينسى أنهم — أى المصريين — لايفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة والاستبداد الغاشم فكان هذا باعثا على استعمال الشدة ليضطرهم الى معاونته على اصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه (٨٨) .

والتضارب واضح وبين فى أقوال كلوت بك فهو يتحدث عن همجية الادارة المصرية فى أسلوب التجنيد ثم يحملها مسئولية القهر والظلم الذى وقع على الشعب المصرى ، ويعود متناقضا مع نفسه فيحمل شعب مصر المسئولية ويصوره بصورة شعب لا يفهم الا لغة السوط ويظهر محمد على بصورة المضطر الى استخدام أسلوب العنف حيث انه هو الأسلوب الأوحد الذى يمكن أن يفهمه شعب مصر .

واضافة الى الوضع القاسى الذى ذكره كلوت بك فى حديثه عن جميع شبان التجنيد يذكر أن الرواتب كانت توزع بصورة تدل على تفاوت صارخ بين الدرجات ، فاذا علمنا أن راتب الجندى الشهرى خمسة عشر قرشا وأن راتب الميرميران « أمير الأمراء » وهو الدرجة التالية للسر عسكر « رئيس القواد » قد بلغ اثنا عشر ألفا وخمسمائة

---

(٨٧) كلوت بك ارجع السابق ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٨٨) كلوت بك — المرجع السابق ج ٣ ص ٢٦٦ .

قرش فى الشهر(٨٩) أدركنا أن كل ثمانمائة وثلاثة وثلاثين جنديا يتقاضون راتبا يعادل راتب أمير الأمراء ، وهذا يوضح تدنى حالة الجندى فى الجيش مقارنا بغيره من الدرجات الأخرى والتى كانت تسند غالبا الى غير المصريين .

ومن العجيب أن كلوت بك الذى أورد تلك الاحصائيات يعود فيقول : ولما رأى الفلاحون ما يعاملون به من الرعاية وحسن العناية ورأوا أنهم يتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا فى بيوتهم انتهى الأمر بهم الى اعتياد حالتهم الجديدة والاغتباط بها (٩٠) ؛ يقرر هذا كلوت بك على الرغم من أن صور الهروب من التجنيد من جيش محمد على ظلت منتشرة بصورة تحدث عنها كلوت بك نفسه (٩١) وتحدث عنها غيره وأحدثت ازعاجا للباشا(٩٢) .

ويناقش الرافعى قضية هروب المصريين من التجنيد فيقول : ان المصاعب فى تجنيد الأهالى ترجع الى أنهم لم يألفوا الخدمة العسكرية ولم يكونوا مكلفين بها فى عهد المماليك وهذا نقص كبير فى أخلاق الشعب الحربية فانه ما من أمة تنزع الى الاستقلال وتقدس الحرية الا وتجعل الخدمة العسكرية فرضا حتما على أبنائها فى طبقاتهم كافة فلما شرع محمد على فى تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط وام ينتظموا فى صفوف الجندية الا مكرهين ... ومن الأسف أنه مازالت كراهية التجنيد باقية فى نفوس معظم طبقات

---

(٨٩) كلوت بك ـ المرجع السابق ـ جـ ٣ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٩٠) كلوت بك ـ المرجع السابق ـ جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٩١) انظر صورا يسوقها كلوت بك لتشويه الجسد هربا من التجنيد ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ (المرجع السابق) .

(٩٢) أمين سامى ـ تقويم النيل ـ جـ ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٦٢ .

الشعب الى عصرنا هذا (١٩٣٠) فالمتعلمون يكرهون التجنيد ويفرون منه ، والسواد الأعظم من الأمة بتحاشاه ويمقته وكل من يطلب للتجنيد يود أن يفتدى نفسه بما يستطيع من المال ولا يمكن تدارك هذا النقص الا اذا تقدمت الطبقات المتعلمة وأعطت المثال للطبقات الأخرى فى احترام التجنيد والاقبال عليه باعتبار أنه واجب وطنى عام ، ومالم يتقدم المتعلمون والموسرون الى الانتظام فى سلك التجنيد فلا يجمل بنا أن نلوم الفلاحين على نفورهم منه لأنهم اذ يرون المتعلمين يترفعون عن الخدمة العسكرية فلهم العذر أن يتوهموه سخرة تبتلى بها الطبقات الفقيرة وهذا الوهم يفسد الروح القومية والحربية فى طبقات الشعب (٩٣) .

وقضية التجنيد والجندية مرتبطة تماما بدفاع الانسان عن نفسه وماله وولده وبلده وهذا أمر ليس من السهولة أن نسلم فيه بافتراءات كلوت بك التى تجعل أن شعب مصر لا يؤدى واجبه الوطنى الا اذا سيق بعصا غليظة أو ضرب بيد من حديد ، كما أننا لا نستطيع التسليم برؤية الرافعى وبتحليله لظاهرة الهروب من التجنيد .

وفى الرد على هذه الأقوال سنسوق بعض نموذجات من تاريخ المصريين الوطنى والعسكرى قبيل هذه الفترة « محل البحث » ثم نتناول بعض الأمور التى يعتقد أنها كانت سببا فى عدم اقبال المصريين على التجنيد فى فترة البحث وفى غيرها فنقول .

ان من الافتراء بمكان أن يلصق بالشعب المصرى اتهام بالبعد عن أقدس الميادين التى يتبارى فيها الرجل ويتسابق اليها الأحرار ، وتتجلى فيها معادن الناس ودرجات البشر ، ألا وهو ميدان الجهاد ،

---

(٩٣) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ص ٣٨٥ .

ويتحدث التاريخ عن المصريين فيذكر صفحات ناصعات تفيض بالبطولة والاقبال والتضحية والفداء ، فبعد مجيىء الفرنسيين غزاه الى مصر بدأ الأهالي يستعدون اذ نودى بالتغير العام وخروج الناس٠٠٠فاغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خياما٠٠ وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، وظل الناس يتوافدون ولم يبق فى مصر «القاهرة» الا النساء والأطفال ، يقول الجبرتى « ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق وأقام بها » (٩٤) وهذه صورة توضح لنا مدى استعداد المصريين فرادى وجماعات على اختلاف طوائفهم وحرصهم على الدفاع عن وطنهم ودينهم وعرضهم ٠

ولم يطب الفرنسيين مقام فى مصر فعلى الرغم من حيل وألاعيب بونابارت وما عرف بسياسته الاسلامية ، وعلى الرغم من عدم ارسال نجدات عثمانية ذات تأثير سريع وفعال فان أهل مصر (الشعب وليس الحكومة) كانوا أسبق خطى من أى جهة أخرى فى مناوأة الوجود الفرنسى فى مصر فقامت ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م وكانت شعبية فى لحمتها وسداها ، ثم قامت ثورة القاهرة الثانية فى ٢٠ مارس ١٨٠٠م ولم تخل من مشاركة شعبية مؤثرة ٠

وظل شعب مصر المعطاء يواصل مسيرته فى حب الدفاع عن وطنه ودينه وعرضه فوقف وقفته الرائعة ضد حملة فريزر (مارس ١٨٠٧م) ؛

---

(٩٤) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٢ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ٠

على الرغم من ان مصر آنذاك كانت تحت حكم محمد على الذى يتفق الجميع على حنكته وحصافته ودهاءه وعبقريته فى الإعداد والاستعداد والادارة ، الا أن نورد هو وجنده كان محدودا وتجلت روعة موقف أهالى رشيد فى الدفاع عن بلدهم فى ٣١ مـارس ١٨٠٧ حيث وقفوا مترصدين لعدوهم فى (الازقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فالقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كبيرة وأسروا الباقين(٩٥) ...) وهكذا كان دور الأهالى مشرفا ، ولم يقتصر أمرهم على ذلك فـان القوات المصرية التى قادها محمد على والتى اتجهت لقتال الإنجليز قد رفعت هزيمة الانجليز فى رشـيد من معنوياتهم (فعند ذلك تراجعت نفوس العساكر وطمعوا ..... فى الانجليز وتجاسروا عليهم) ثم كان الدور المشرف لأهل البلاد أولئك الذين (قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشـتروا الأسـلحة ونادا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعين ونصبوا لهم بيارق وجمعوا من بعضهم دراهم ... فلما وصلوا الى متاريس الإنجليز دهموهم من كل ناحية)(٩٦) وقاموا بدور رئيسى فى هزيمة الإنجليز(٩٧) .

تلك بعض النموجات التى تكشف دور المصريين فى الدفـاع عن بلادهم واستعدادهم الفطرى للجهاد والتضحية والفداء الأمر الـذى يتنافى معما قاله كلوت بك ويتعارض مع ما قاله الرافعى ، وكـان من الأجدر بمؤرخنا أن يبحث عن الأسباب الحقيقية التى دفعت بالمصريين

---

(٩٥) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار ج ٣ ص ١٨١ : ١٨٣ .

(٩٦) عبد الرحمن الجبرتى ـ ارجع السابق ج ٣ ص ١٩٥ ، ١٩٦

(٩٧) عن تفاصيل حملة فريزر ـ انظر ص من هذا البحث

الى الهروب من التجنيد ، فلا يتعدى أثر الحكم المملوكى الا جانبا ضئيلا أما الأسباب المقبولة والجوهرية لتلك الحالة فانها من وجهة نظرنا تكمن فيما يلى :

أولا : غياب عنصر القدوة فى القيادة آنذاك فقد كان أمام الشعب من قبل نفر من الزعماء الذين أهلتهم امكاناتهم كعمر مكرم وعلماء الأزهر ، وهؤلاء يمثلون القدوة أمام الأهالى فلكلمتهم فعل السحر عند الناس ، فكانوا هم القدوة وتوفرت فيهم الصفات التى أهلتهم لذلك فوافق الأهالى على مطالبهم ولبوا نداءهم طائعين .

أما فى عهد محمد على فقد انتفى دور القدوة والاقناع تماما وحل محله الكرباج للمصريين واحتقار فلاحى مصر ووضعهم فى ذيل قائمة سكان مصر ، لذلك هرب الأهالى فرادى وجماعات ليس من التجنيد فقط وانما من جميع الأعمال الحكومية التى كانت تعد سخرة أكثر منها عملا وطنيا ، كما أن التفاوت الصارخ فى الرواتب بين الجندى والقائد لم يدع فرصة لأى نوع من التقارب بين القادة والجند ، فأوصد الباب أمام الألفة الواجبة بين القائد والجندى تلك التى تجعل الوحدة العسكرية أشبه بأسره مترابطة تكون علاقاتها كعلاقات المسلمين بعضهم والبعض الآخر .

ثانيا : كانت مسهمة الجيش تنفيذ خطط محمد على وتحقيق أحلامه الشخصية فلا علاقة اطلاقا بين ما يقوم به الجندى وبين ما يؤمن به ، فافتقد الجنود الجانب الروحى الذى يحفزهم على حب الجندية والانخراط فى سلكها عن اقتناع بهدفها ورضا بخططها بل أصبح من يسوقه قدره التعيش الى معسكرات الجند عليه أن ينفذ ودون تفكير واعتراض أي عمل يسند اليه اقتنع بذلك العمل أم لم يقتنع ولذلك نرى أن من الجند من ود الانتقام من الجنود المجندين

ثأرا لما لقيه من معاناة وعذاب وقسوة من قبل ، وهكذا دواليك ، كما أن غياب عنصر الايمان بالقضايا التى كانت سببا فى الحروب لم يدع أمام الجندى فرصة للاحساس بأنه يشارك فى عمل هوله أو لأولاده أو يقدم خدمة لوطنه وانما كانت الخدمة مقدمة للباشا ومحققة لأهداف الباشا فقط وناهيك عن الفرق بين من يدعى المشاركة فى حرب هى حربه التى يعرف أهدافها ويؤمن بها وبين من يساق دون أن يعرف شيئا الى مكان لا يعرف عنه شيئا ليحقق أهدافا لا يعرف عنها شيئا .

ثالثا : كان الهروب من الجندية ومن المزارع وغيرها نتيجة طبيعية لعملية تفريغ مصر من المحتوى الروحى الذى عاشته ابان عصورها السابقة ، فقد أراد بونابرت قبل محمد على أن يقوم بذلك الدور ففشل ، لقصر مدة حكمه ويقظة مسلمى مصر وتنبههم لألاعيبه ، أما محمد على فقد طال أمد حكمه وهيأت له الظروف فرصة القضاء على الزعامة الروحية الاسلامية ممثلة فى الأزهر ، ثم أفقد علماء الأزهر مكانتهم الاجتماعية بالاجهاز على الزعامة على اقامة الشعبية ممثلة فى عمر مكرم ، ثم قضى على صدارة الأزهر العلمية وحصر علماؤه فى زاوية الدراسات الدينية وجردهم من الوظائف والأعمال الحكومية مما أفقد الأزهر صدارته السياسية والاجتماعية والعلمية فانطفأ نوره واضمحل دوره الروحى فى المجتمع ، بينما تكالب الباشا على الأموال احتكارا وغشا وأصبح معظم المجتمع يحاكون ولى أمر البلاد فضعفت النوازع الدينية وقضية الجهاد فداء وتضحية لا يمكن لها أن تنمو وتترعرع الا فى جو تظلله روحانية دينية تجعل الانسان أمام أمرين محببين اليه ، اما نصر يحقق به هدفه الذى يطمع فى تحقيقه أو موت ينتهى به الى مرتبة الشهداء الذى هم « أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم

من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »(٩٨) .

رابعا : استغلاء ادارة محمد على على الشبان بصورة جزافية من ناحية ولا انسانية من ناحية أخرى ، فضلا عن حالة المجهول التى يساق اليها ذلك الأنسان فهو لا يعرف أين سيذهب ولا متى سيعود ، ولاشك أن صورة (ادارة محمد على عند كل المصريين كانت مرعبة ممقوتة فاذا كان البكوات المماليك وهم من هم موقعا من أهل مصر قد قضى عليهم محمد على وشتت شمل من تبقى منهم ، وكذلك كل القوى المصرية التى كانت موجودة على الساحة الشعبية فان حالة ذلك الفرد الذى سيقع تحت يد ادارة كتلك ستكون مماثلة لمن يساق لتأدية عقوبة بالسجن مدة لا يعرفها وقد أخذا بجرم لا جريرة له فيه ، فلا غرابة أن يشيعه قومه بالبكاء والعويل(٩٩) مثل تشييع الميت تماما بتمام .

تلك من وجهة نظرنا أهم الأسباب التى أدت الى هروب المصريين وعدم استعدادهم للانخراط فى سلك جندية محمد على بنفس الدرجة التى انخرطوا بها فى سلك جيش الدفاع عن مصر ضد الفرنسيين أو ضد حملة فريزر .

---

(٩٨) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

(٩٩) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢٦٩ (انظر وصفا اضافيا لمجموعة من اجحندين منذ وصول المسئولين الى القرية وحتى وصول المجندين الى معسكراتهم) وانظر الرافعى ـ عصر محمد على ص ٣٨٥ . وانظر أمين سامى ـ تقويم النيل ج ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٦٢ .

٤ ـــ محمد على والاحتكار :

يواصل كلوت بك فى حديثه عن الاحتكار أمر التماس الأعذار لسيده حتى فى الأعمال القبيحة التى التصقت به والتى كانت محل نقد من كل المعاصرين له والمحدثين يقول كلوت بك(١٠٠) (وفى سنة ١٨٠٨م تم على يد محمد على التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضى القطر المصرى الا القليل منها فقد طلب فى ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سندات ملكيتهم فلما قدموها اليه قرر بطلانها جميعا معتمدا فى ذلك على حق ملكية ولى الأمر أى الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان ، ومع هذا فقد أراد تعويض الملتزمين عن فقد ريع الأراضى فقدر ذلك الريع ودفعه اليهم سنويا من الخزانة .. وقرر مبدئيا احترام بعض أصحاب المخصصات وأبقى لهم الأطيان الأرزاقية ولكنه لم يلبث أن ألغاها)(١٠١) ويؤسس كلوت بك حق الاحتكار لمحمد على على حق ملكية ولى الأمر الذى يقول عنه (الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان) ولسنا ندرى من أى مصدر أخذ كلوت بك هذه المعلومات ويشير لفظ (ولى الأمر) الى استمداد كلوت بك هذه المسميات من تشريعات ونظم حكم المسلمين .

وللرد على ذلك نقول : فى الدولة الاسلامية عرف الخليفة بأنه ولى الأمر والوكيل عن الأمة ، وأن للأمة أن تراقبه وأن تطيعه فى حدود توكيله ولذلك قيل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيفنا ،

---

(١٠٠) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٠١) كوت بك ـ المرجع السابق ج ٣ ص ١٩٣ .

وقال هو فى رده على تلك المقولة لا خير فيكم أن لم تقولوها ولا خير فينا ان لم نسمعها ٠

واذا كان ملوك بنى العباس قد أخذوا بفكرة استمداد سلطانهم من الله لا من الناس وانهم محاسبون أمام الله غير محاسبين أمام الناس ، فأولئك المرجع فى أمرهم الى كيفية توليهم السلطة فاذا كانوا قد تولوا عن طريق الشعب بالشورى الحرة فهم وكلاؤه ، أما اذا كانوا قد غلبوا الشعب على أمره ، وتسلطوا بقوة البأس على رقاب الناس فقد أصبحوا سادة وحكاما دون سلطة أو سند ٠

ولاشك فى أن حكام الدولة الأسلامية بعد أن تأثروا لحكام بالنظم التى كانت قائمة فى بلاد فارس وفى بلاد الروم قد جعلوا الولى الأمر سلطانا مطلقا فكان من أثر ذلك أن تطورت الفكرة الأساسية فى الحكم الى النقيض لما كانت عليه فى أول العهد الاسلامى ثم كان من أثره أن تساعت فكرة الحكم المطلق منتقلة من أمير المؤمنين الى الحكام والولاة ومن دونهم وهذا تدهورا انتقل بالحاكم الى الحكم المطلق(١٠٢) ٠

وقد كان من أثر هذا التدهور أن زالت فكرة الامبراطورية الروحية التى تربط المسلمين جميعا بآصرة التقوى والايمان بالله وحده ، فصارت الامبراطورية الأسلامية فى طور الأمبراطورية المتداعية الركن المهيضة الجناح بعد أن فقدت منهج السلف فى قيادة الأمة ، وعلى ذلك فملكية ولى الأمر التى يتحدث عنها كلوت بك ملكية مشروطة بوصول الحاكم بالشورى والاختيار الشعبى الحر ، وفتح باب الحاكم للتقويم الشعبى ومراقبة أفعاله وتصرفاته فى حدود التشريعات الاسلامية ، ولما كانت

---

(١٠٢) د٠ محمد حسين هيكل ـ الحكومة الاسلامية ـ ط ثانية ص ٣٦ ، ٣٧ ـ دار المعارف ـ مصر ـ سنة ١٩٨٣م ٠

حكومة محمد على قد تخلصت من الزعامة الشعبية فقد فقدت عنصر الاختيار الشعبى لها وفقد محمد على ولايته للأمر بالمفهوم الأسلامى وأصبحت حكومته باطلة من وجهة النظر الاسلامية .

تحدث كلوت بك عن الاحتكار فيقول ، (ومما اتساق الناس اليه عن طريق الواهم الاعتقاد بأن هذا الأحتكار قد شمل حاصلات مصر كافة من غير استثناء وهذا خطأ محض فان هناك أصنافا عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لا تسرى عليها قواعد الأحتكار بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها ، وانما الاحتكار يتناول القطن والأرز والصمغ والنيلة والسكر والأفيون .... الخ ولا يتعداها لغيرها(١٠٣) .

وقبل اعتبار الاحتكار جريمة واسناد هذه الجريمة الى محمد على ينبغى الاقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمرات اختراعه بل انه كان معروفا فى سائر أنحاء الممالك العثمانية ومعمولا به ، وان الخط الشريف لم يصدر بالغائه الا منذ عهد قريب مع أن هذا الإلغاء لأتزال الشكوك تحوم حول صحته أو الدقة فى تنفيذه دع انه بعد هذا وذاك من الأنظمة اللاصقة بمصر منذ قديم الزمان ، اذ من المقرر المعروف انه كان معمولا به فى كل زمان ، واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة اليه(١٠٤) .

ويشير كلوت بك فى أقواله السابقة الى أن محمد على لم يحتكر كل المحاصيل ، والى أن الاحتكار نظام كان معمولا به فى سائر أقاليم الدولة العثمانية ، وهذه أمور تساق للتهوين من أثر معالاة محمد على

---

(١٠٣) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ١٩٦ .

(١٠٤) كلوت بك ـ المرجع السابق ج ٣ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

فى التسلط على امكانات مصروشعبها الأمر الذى وصفه الجبرتى باسهاب فقال فى أحداث ١٢٣١هـ (١٨١٦م) : ان من لأحداث شدة رغبة الباشا فى تحصيل الأموال والزيادة من ذلك من أى طريق بعد استيلائه على البلاد والاقطاعات والرزق والاحباسية وابطال البيع والشراء ونحو ذلك فكل من مات عن حصة أو رزقه أو مرتب انحل بموته ما كان على اسمه وضبطه وأضيف الى ديوانه ولو كان له أولاد(١٠٥) .

ويذكر الجبرتى فى حوادث ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) أن ولى الأمر لم يكن له من الشغل الا صرف همته وعقله وفكرته فى تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ولا يتقرب اليه من يريد قربه الا بمساعدته على مراداته ومقاصده ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقا)(١٠٦) كما توضح حوليات الجبرتى مغالاة محمد على بصورة غير مسبوقة وبدل نقده لتصرفات الباشا على اشتطاط الرجل وافراطه فى جمع المال بأى وسيلة مشروعة وغير مشروعة وينتهى الجبرتى الى وصف محمد على بأنه كان من طبعه الحسد والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم(١٠٧) .

ويكشف الجبرتى كذب كلوت بك حينما أشار الى احتكار عدد من المحاصيل وليس كل المحاصيل فيشير فى أحداث شهر ذى الحجة

---

(١٠٥) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(١٠٦) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٤٨،٥٤٩

(١٠٧) د. مصطفى محمد رمضان ـ دور الأزهر فى الحياة المصرية ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن ١٩ ص ٤٧٨ ط أولى ـ مصر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

١٢٣٥هـ (١٨٢٠م) الى أن ابراهيم باشا (ابن محمد على) قد سافر الى ناحية قبلى ليجمع ما يجده عند الناس من القمح والفول والعدس الثلاثة أصناف ، وأخذوا كل سفينة غصبا وساقوا الجميع الى قبلى لحمل الغلال وجمعها فى الشئون البحرية لتباع على الافرنج والروم بالأثمان الغالية(١٠٨) ، وهكذا يمتد الاحتكار الى أى سلعة يمكن للباشا أن يتاجر فيها ويمتد السطو وتمتد السيطرة الى وسائل النقل وكلها صور تتم جبرا وقهرا .

ويناقش كلوت بك الاحتكار مناقشة يستشهد فيها بصور من الماضى أعتقد أنها تؤيد وجهة نظره فيقول (ألم يعهد الى يوسف عليه السلام بعد اذ قام بتأويل الرؤيا لفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتوزع فى سنى القحط والمجاعة على الأهلين ؟ وهل فى هذا الأمر الا الإحتكار بعينه ؟ لقد أجمع المؤرخون على تمجيد سيزوستريس والاشادة بذكره لأنه خول رعيته حق الملكية ، أفليس هذا دليلا ناصعا على انهم كانوا قبله لا يملكون هذا الحق ؟ ومع هذا فقد توافرت الأدلة على أن حق الملكية لم يرتكز قط فى مصر على أساس وطيد) ويضيف كلوت بك ما جاء على لسان علماء الحملة الفرنسية اذ يقولون (منذ حدثت أول غارة على مصر قام نظام حكومتها على حق الفتح وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك بدون أن يسنا قانونا لتحديده وتعيين شرائط التمتع به .. ولقد أحست الادارة الفرنسية انه اذا لم يكن الإحتكار ضروريا فانه من الصعوبة استبداله بحالة أخرى منافية له) ثم يضيف كلوت بك الى هذه الأمور أن محمد على قد اضطر الى أمر الاحتكار

---

(١٠٨) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق ج ٣ ص ٦٢٣ .

حتى يسخر موارد مصر لخدمة مشروعاته الزراعية والصناعية والتجارية العملاقة الأمر الذى لم يكن فى امكان شعب مصر القيام به الا عن هذا الطريق(١٠٩) .

وقصة يوسف عليه السلام التى ضرب بها كلوت بك مثلا بعيدة كل البعد عن الاحتكار فمضمون القصة أن يوسف لما التقى به الملك قال : أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات تأكل الخضر فأخبره يوسف عليه السلام بتأويل ذلك وهو : أن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغلات الوافرة ثم سبع سنين مجدبة تأتى على المخزون من السنين السبع التى تقدمتها ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرغد ، وأن عليهم أن يقتصدوا فى سنى الخصب السبع ويخزنوا ما فضل عن القوت فى سنبلة حتى اذا حل الجدب وجدوا فى مخازنهم ما يسد الرمق وما يمكن أن يتغلبوا به على النقص الى أن يأتى الخصب(١١٠).

اذن فقصة يوسف عيه السلام لا تتضمن أى نوع من الإحتكار فهى لم تشر الى قيام الملك بمصادرة أملاك الآخرين أو الاستيلاء عليها بحجة تخزينها للسنوات العجاف وانما قام الأهالى بخزن الأقوات الزائدة كل بطريقته الخاصة .

أما الحديث عن تمسك الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك بحق الفتح الذى خولهم حق الاحتكار دون تحديده بقانون فهو أمر مردود عليه من ناحيتين :

---

(١٠٩) كلوت بك مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٩٦ : ص : ١٩٩ .

(١١٠) عبد الوهاب النجار ـ قصص الأنبياء ص ١٦٣ ، ص ١٦٤ ط/ثانية ـ مكتب دار التراث ـ القاهرة ـ ثم تذكر سنة الطبع .

الناحية الأولى : أن جور الحكومات السابقة — ان وجد — لا يوجب جور الحكومات اللاحقة ، ولا يعد مسوغا للاستيلاء على أقوات الناس بحجة انهم غلبوا على أمرهم بالأمس واغتصبت حقوقهم •

الناحية الثانية : أن هذا الحكم هو حكم عام لا يستند الى دليل ولا يعتمد على مصادر أصلية ، فمصادر التاريخ الإسلامى تتحدث عن حالة الانتعاش الإقتصادى التى شهدتها مصر تحت الحكم الاسلامى وعن المشاريع الزراعية والصناعية والتجارية كما تشير الى قيام قبط مصر بالنصيب الأوفر من هذه الأنشطة فى سنى الفتح الأولى ثم تذكر اشتراك العرب المسلمين الذين استقروا فى مصر فى الأنشطة المختلفة بعد فترة من الزمن(١١١) ، وحتى أولئك المؤرخين الذين أبدوا نوعا من التحامل على الحكم الاسلامى فى مصر لم يذكر واحد منهم أن المسلمين احتكروا سلعة أو محصولا أو أرغموا الأهالى على التعامل التجارى بنظام معين •

وتتحدث مصادر العصور الوسطى ومصادر التاريخ المملوكى والعثمانى عن النظم الاقتصادية(١١٢) وتشير الى معاناة بعض الولاة فى جمع الأموال من الأهالى والى جور بعض الملتزمين فى تعاملهم مع

---

(١١١) د• مصطفى طه بدر — مصر الاسلامية ج ١ عن الحالة الاقتصادية فى مصر الاسلامية راجع من ص ٦٦ : ص ٨٣ •

(١١٢) انظر على سبيل المثال : ما تضمنه كتاب عجائب الآثار للجبرتى قبل مجيء الحملة الفرنسية ، وانظر د• ابراهيم على طرخان: النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ود• حكيم أمين عبد السيد قيام دولة المماليك الثانية ، وفصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى د• عبد الرحيم عبد الرحمن ، الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى د• محمد عفيفى وغيرهم •

الفلاحين ولكن أمر الاحتكار على تلك الصورة التى شهدتها مصر محمد على لم يرد له ذكر ولم يلجأ اليه حاكم •

خامسا : صفات محمد علىّ وشخصيته كما يراها كلوت بك :

لقد كان كلوت بك قريبا من حاكم مصر وأحد كبار المسئولين فى ادارة محمد على الأمر الذى يجعل وجهة نظره فى تحليل شخصيته محمد على من الأهمية بمكان ، خاصة وأن كلوت بك قد آثار الى التزام جانب الحيدة والموضوعية فيما كتب حيث يقول « فليثق القارىء بأننى لم أطاوع فيما كتبت هوى النفس ولا مجرد المجاملة ••• وانني فيما كتبت قد احتفظت بحريتى كاملة فى الاعراب عن أفكارى بما اخترت لها من العبارات والألفاظ » (١١٣) وهذا أمر يجعل مسئولية الكاتب عن كتاباته كاملة •

يقول كلوت بك مسجلا صفات محمد على « ومحمد على سريع الخاطر حاضر الذهن شديد الانفعال لا يستطيع أن يكتم ما تتأثر به نفسه من المشاعر المختلفة ومن ثم كان مطلق الحرية فى القول حريصا على الصدق فيه بعيدا عن التكتم بقصد المكر والخدعة غيورا على مال الله مساس بالكرامة صادق الوعد بعيدا عن نطاق الغدر طلق اليدين يدفعه حب البذل أحيانا الى الصرف •• ولولا أننى شاهد عيان لفضائله العالية لتعذر على أن أدنى الى ذهن القارىء بفكر ذما عنها أو عما انطوى عليه قلبه من العطف والرحمة والبر بالناس أجمعين •

ومما يؤثر عنه من الفضائل والمحامد صدق التمييز وسلامة الذوق فى الأعمال واستقامة الحكم وصواب الرأى ••• وهو بارع فى

---

(١١٣) كلوت بك ـ لمحة الى مصر ج ١ ص ٨ •

الحساب ... ومعلوم أنه لم يبدأ تعلم القراءة الا فى الخامسة والأربعين من عمره وهذا بلاشك أجمل ما يذكر من تاريخ حياته ، ... وما كاد يضرب بسهم فى القراءة حتى تفرغ لدرس التاريخ وكان أهم ما شغله منه تاريخ الاسكندر ونابليون بونابارته ... ومن أبعث الأمور على سرورة التحدث مع الأوربيين والمتعلمين والمتنورين ، وهو شديد التمسك بدينه من غير تعصب ولا تنطع ... ولسنا بمبالغين اذا أكدنا أن محمدا عليا من فحول الرجال وأنه أكبر من أنجبهم الشرق وامتازوا بالعبقرية العالية (١١٤) .

وفى موضع آخر يقول كلوت بك « ولست أدعوا أحدا الى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية بل أدعوا الى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين وأنه مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الأمة التى ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعا لا مؤازرة على العمل قد سلك مسلكا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الأحتفاظ به بعد ذلك (١١٥) .

والآن وبعد عرض ما امتاز به محمد على من صفات وما سجله كلوت بك تسجيل المراقب المتأنى لهذه الخصال سنتوقف مع بعض هذه الأوصاف التى نعتقد أن كلوت بك قد جانبه الصواب فى اطلاقها على وجه العموم كصفات لمحمد على باشا .

١ — قول كلوت بك « ان محمد على حريص على الصدق بعيد عن التكتم بقصد المكر والمخادعة » هذا قول تشير تصرفات محمد على الى عدم دقته فقد حرص الباشا فى كثير من القضايا على المكر

---

(١١٤) كلوت بك — المرجع السابق جـ ١ ص ٧٧ : ٨٢ .

(١١٥) كلوت بك — المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧٥ : ١٧٦ .

والمخادعة ، تشـــير الى ذلك رســـائله الى الحكام الدين ولاهم على الأقاليم التى خضعت لحكمه كشبه الجزيرة العربية والشام والسودان فقد كتب الى أحمد باشا يكن « محافظ مكة والحاكم الفعلى للحجاز » فى الحجاز يقول : ان الحـــاكم الذى يهتم بالتقاليد والذى لا يفهم مصلحته سيجعل من نفسه انسانا من الموتى والحمقى ، وهـــذا القول ينطـــوى على أن محمـــد على كانت تحركه مصلحته بصرف النظر عن مصالح الآخرين من الشعوب التى خضعت لحكمه ، يقول محمد على : العادة والتقليد عبارة عما يقال له اقتضـــاء المصلحة ، فيجب عليك أن تتولى عند الاقتضاء الأمر على صورة تتفق مع مصلحتك وأن تعرض عن الأصغاء والنظر الى كلام غيرك وأن تتجنب اقتفاء أثره واتبـــاع طريقـــه .

ويقول أيضـــا : ان مرادى لا يتحقق الا بالنظر فى الأمور .. وبالرحيل والتنكيل متى اقتضى الأمر الرحيل والتنكيل (١١٦) .

وأمور تغليب المصلحة الشخصية والتنكيل وعدم مراعاة مصالح الآخرين بعيدة كل البعد عن الصدق وعن عدم المكر والمخادعة .

وتكشف صورة أخرى عن خداع محمد على وذلك فى موقفه من الشريف محمد بن عون شريف مكة « ١٨٢٨: ١٨٤٠م » حينما أرسل يستدعيه بحجة مناقشـــة أمـــور ثوار عســـير بينمـــا كان الغرض من

---

(١١٦) انظر محافظ الحجاز ١٢٣٧هـ ـ دفتـــر ١٠ معية تركى ـ ترجمة المكاتبة رقم ٨٤ الصادرة من محمد على الى أحمد باشا يكن محافظ مكة فى غرة ربيع الآخر ١٢٣٧هـ ـ وانظر الملحق رقم ٥ من الملاحق المرفقة ـ سياسة محمد على فى شبه الجزيرة العربية ـ مالك محمـــد أحمد رشوان ص ٤٠٢ : ٤٠٦ وهى رسالة ماجستير لم تنشر بعد .

استدعائه هو اعتقاله فى مصر وعدم السماح له بالعودة وتعيين شريف آخر على مكة ، وقد أوضح نواياه الماكرة المخادعة فى رسالة أرسلها الى حاكمه على الحجاز (١١٧) ، وتم ارسال الشريف الى مصر وبقى فيها وغير تلك الصور الكثير .

٢ ــ يقول كلوت بك ان محمد على كان صادق الوعد بعيدا عن نطاق الغدر ، والتاريخ يقول غير ذلك ، فقد تولى محمد على حكم مصر بعد أن أسند العلماء المشايخ السلطة اليه وكان ذلك الأسناد مشروطا حيث قالوا له « لقد أسند اليك الأمر بشروطنا التى نتوسمه فيك من العدالة والخير » (١١٨) وهكذا أجمع الزعماء على توليه محمد على بالشروط التى رأوها والتى عبرت عما يجيش فى صدورهم وصدور الأهالى من تحقيق للحرية ، وتوفير الضمانات لمراقبة لصيقة الحكومة » (١١٩) ولم يلبث محمد على بعد أن أرسى دعائم حكمه أن تنكر لاتفاقه مع المشايخ زعماء الشعب وعصف بكل بنود اتفاقهم معه .

ومن صور الغدر التى وصمت بالعار عصر محمد على أسلوبه الماكر فى القضاء على المماليك حيث استدعاهم حضور حفل تنصيب أبنه طوسون باشا كقائد عام للجيش المتجه الى الحجاز ثم لم يلبث

---

(١١٧) محافظ الحجاز ١٢٥٥هـ ــ دفتر ٦٧ معية تركى وثيقة ٦٥٨ من الجناب العالى الى أحمد باشا يكن وانظر تفاصيل هذه الحادثة فى ص ١٥٠ : ص ١٥٠ فى رسالة الماجستير السابقة الذكر .

(١١٨) عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ٦٣ .

(١١٩) عبد الرحمن الرافعى ــ تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٣٤٨ ، وانظر علماء الأزهر بين بونابرت ومحمد على د. محمد أحمد رشوان ص ٢٠٥ : ٢١٠ .

أن قضى عليهم فى مذبحة جماعية (١٢٠) أخافت كل القوى الموجودة فى مصر من سوء العاقبة .

هذه الصور تكشف عن عدم دقة كلوت بك فى وصف محمد على بصدق الوعد والبعد عن نطاق الغدر .

٣ ــ يصف كلوت بك محمد على بأنه ذو قلب ينطوى على العطف والرحمة والبر بالناس أجمعين ، وهذا القول يتناقض مع ما ذكره كلوت بك فى مواقع أخرى من كتابه اذ يقول : من المسلم به أن سمو الوالى قد اضطر فى ظروف خطيرة ... ولاسيما ابان ولايته حينما كانت السلطة غير راسية القواعد الى تنفيذ الاعدام بلا مدعاة ولا مقاضاة فى بعض دعاة الفتنة من الألبانيين وغيرهم (١٢١) .

ويقول فى موضع آخر : والمفهوم أن لا وسيلة فى مصر غير الكرباج والأكراه للممولين لجلب الأموال المستحقة للحكومة واقناعهم بالعدول عن الاصرار على عدم سدادها (١٢٢) .

ويقول الرافعى : ان شعب مصر « فى عصر محمد على » لم يتحرر من الشقاء ... بل وقع عليه ارهاق ومظالم كثيرة ، فقد غدحته السخرة، ولم يذق طعم الحرية الشخصية ولاحق الملكية ، ... وقد أساء نظام الاحتكار الى الشعب اساءة كبرى لأنه ضرب عليه حجابا من الفقر والجمود (١٢٣) .

---

(١٢٠) عن حديث محمد على عن الخيانة ــ انظر أحاديثه لقناصل الأجانب ص ٦٩٠ د. شكرى وآخران ــ بناء دولة مصر محمد على (لسياسة الداخلية) .

(١٢١) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ٩٧ .

(١٢٢) كلوت بك ــ المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٧ .

(١٢٣) عبد الرحمن الرافعى ــ عصر محمد على ص ٦٦١ : ٦٦٢ .

وعن القسوة وعدم الرحمة فى تزويد الجيش بالمجنـــدين يقول كلوت بك :ان القوة الغاشمة فى مصر هى أسلوب جمع المجندين ، وهى فى مصر على اقصى ما يمكن أن يتصور من الوحشية والهمجية والقوة هى التى يرجع اليها فى تزويد الجيش بالمجندين والتجنيد فى مصر من وجوه الظلم البين » (١٢٤) •

أما شيخ مؤرخى هـــذا العصر عبـــد الرحمن الجبرتى فتفيض حولياته حسرة وألمـــا وأسى على الانتهاكات والتعدى والظلم والقسوة التى حلت بالمصريين (١٢٥) •

هذه صور لا تتفق مع أوصاف الرحمة والعطف والبر التى رآها كلوت بك قد توفرت فى شخص محمد على باشا وقد أشرنا الى تناقض ما ذكره كلوت بك نفسه مع ما وصف به الباشا •

٤ ــ فى انكار صريح ــ يبدو أنه متعمد ــ لدور شعب مصر فى بناء دولته الحديثة يقول كلوت بك : ان محمد على لم يجد من شعبه مؤازرة ولا تشجيعا ، ويشير بذلك الى أن الرجل قـــد خاض معركـــة تطوير البلاد بجهوده الشخصية ومجهوده الفردى ، وهذا قول فيـــه اغفال تام لدور الشعب المصرى فى معركة تنمية بلاده •

ولم يستأثر كلوت بك بهذا القول وانما تردد مثل هذا القـــول كثيرا ، ويبدو أن مصدره هو محمد على نفسه الذى طفق يتحـــدث

---

(١٢٤) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره ــ جـ ١ ص ٢٦٩ •

(١٢٥) راجع • عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : جـ ٣ ص ١٨٢ : ٦٣٠ حيث تغطى هذه الصفحات الأحداث من ســنة ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م) حتى ســنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٥م) ، وتفيض هذه الأحداث بالكثير من صور معاناة الشعب المصرى فى هذه الفترة •

عن جهوده وأماله أمام القناصل والوكلاء الأوربيين بصورة تبرز دوره وتركز على أعماله منفلا أى دور لأى مصرى فى قيام مصر الحديثة .

يقول محمد على فى تصريح له لجون بورنج (١٢٦) John Bowring لقد أتيت الى مصر فوجدتها يسكنها جماعة من المتبربرين ولم يكن بها فرد واحد يعرف القراءة والكتابة بل انى لم أجد سوى شخص واحد — لم يفصح عن ذكر اسمه — يصلح لأن يكون سكرتيرا لى فبذلت كل ما فى وسعى لادخال المدنية الى البلاد (١٢٧) .

ويكشف هذا التصريح عن كذب محمد على ومبالغته فى اظهار سوء حالة الشعب المصرى وابراز الجوانب السلبية المتراكمة فى مصر، ويتفق هذا التصريح على لسان محمد على مع ما ذكره كلوت بك — ولعله نقل رؤيته على لسان محمد على أيضا — حيث يلتقيان معا فى اظهار شخصية محمد على بأنه هو الذى تمكن فى وضع قاس وظروف سيئة وبين شعب متخلف من تأسيس دولة متطورة حديثة أصبحت حديث سياسة الشرق وزعماء الغرب .

ويبالغ محمد على فى تصوير بطولاته وأمجاده فيصرح لدوهاميل (١٢٨) Duhamel بأن مصيبته الكبرى أنه لم يجد بين

---

(١٢٦) د. جون بورنج انجليزى حصل على الدكتوراة فى القانون من جامعة جرونتجن بهولندة ١٨٢٨ ، قدم الى مصر ١٨٣٧ موفدا من قبل الانجليزية لوضع تقرير عن حالة مصر فى ذلك الوقت والتوقعات المستقبلية . انظر ترجمة وافية لشخصيته وحياته ص ٢٦١ : ٣٧١ د. محمد فؤاد شكرى وآخران — بناء دولة مصر محمد على — السياسة الداخلية ط // أولى — الفكر .

(١٢٧) د. محمد فؤاد شكرى — وآخران — المرجع السابق ص ٦٩٠

(١٢٨) الكولونيل دوهاميل عمل ياورا للقيصر الروسى اسكندر الأول ثم وقع اختيار القنصل ووزير خارجية نسلرود

خاصته شخصا واحدا سوى أبنه يستطيع معاونته حتة (١٢٩) ٠ ويشير هذا القول الى انكار تام لجهود الآخرين وحرص محمد على باشا على الصاق الأمجاد بشخصيةوالاستئثار بذلك دون الآخرين(١٣٠)

ويصور الجبرتى ما يجنيه شعب مصر بعد مشاركته فى أى عمل يقوم به كالدفاع عن بلاده ضد عدوان أجنبى أو المشاركة فى بنائها بقوله « ٠٠٠ وليت العامة شكروا أو نسب اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشا ، ٠٠٠ وجوزيت العامة بضد الجزاء (١٣١) ويؤكد كلوت بك فى كتاباته وجهة نظر الجبرتى فينسى ما فعله شعب مصر ويسند كل الأمجاد الى سيده ٠

عليه ليكون قنصلا عاما لدولته فى مصر وقد وصل الى الاسكندرية فى ١٣ يناير ١٨٣٤م فاستقبل فى الاسكندرية برسالة من بوغوص يوسف (وزير خارجية محمد على) جاء فيها (انه عظيم الاغتباط بوصول قنصل عام من قبل الامبراطور الروسى وان الباشا يسره أن يرى القنصل فى القاهرة وان الأوامر قد صدرت بأن يكون استقباله مقرونا بكل ما يليق به من حفاوة واحترام) انظر ترجمة وافية له فى د٠ محمد فؤاد شكرى وآخران ــ مرجع سبق ذكره ص ٢٩١ : ٢٩٦ ٠

(١٢٩) د٠ محمد فؤاد شكرى وآخران ــ المرجع السابق ص٣٥٧ ٠

(١٣٠) تجدر الاشارة الى أن العلاقات بين محمد على باشا وابنه وولى عهده ابراهيم باشا فى السنوات الأخيرة قد شهدت حالة من عدم الثقة التى توفرت لدى الطرفين حيث سادها التوتر واعتقد محمد على أن ابنه يتآمر لعزله أما ابراهيم فقد خشى أن ينقلب والده عليه ويقتله ٠ انظر نوبار فى مصر عرض وتقديم نبيل زكى ص ٢٧ كتاب اليوم العدد ٣١٨

(١٣١) عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ١٩٥ ، ١٩٦ ٠

٥ ــ يتحدث كلوت بك عن بعض صفات الباشا فيصفه بانه «ضيق اليد يحب البذل حتى يصل الى الاسراف » ، وحاله المصريين التي يكشف عنها الجبرتي في حولياته تتنافى مع هذه الأوصاف فهو يصف الباشا بأنه مريض بداء الحسد وانتطلع الى ما في أيدي الناس ، ويصفه في موضع آخر بأنه لاغرض له سوى سلب الناس أموالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وكثيرا ما يتحدث عن النقم التي نزلت باهل مصر ، ومما قاله الجبرتي : ان ولي الأمر لم يكن له من الشغل الا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والكسب وقطع ارزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب » (١٣٢) ولسنا نجد سببا أو داعيا يجعل الجبرتي يحمل تلك الحملة على الباشا اللهم الا الكشف عن حقائق مجردة ، وتسجيل وقائع صادقة ، فاذا أضفنا الى تلك الامور الاحتكار الذي اصطلى بناره معظم شعب مصر ألفينا الباشا على نقيض ما رأى كلوت بك ، ولنا من بعض تصرفات محمد علي الأمثلة على ذلك حيث ان يد الحكام الطليقة وحبهم للبذل يظهران في أبراز صورهما ابان الانتصارات وعقب تحقيق الأنجازات نتيجة ذلك في كثرة الأغداق على الشعب ، وتوزيع العطايا وعموم الرخاء ولكن الباشا كان له مذهبه الشخصي وآراؤه الخاصة فعقب تحقيق انتصار في حروب الحجاز واستيلاء قوات محمد علي على مكة « ... نودي بزينة المدينة « القاهرة » » خمسة أيام ... وقاسى الناس في هذه الليالي العذاب الأليم من شدة البرد والصقيع وسهر الليل الطويل ، ولما نودي .. بقلع الزينة ونزل التعاليق » هب الأهالي « .. كأنما نشطوا من عقال وخلطوا من السجون لما قاسوه من البرد والسهر وتعطيل الأشغال

---

(١٣٢) الجبرتي ــ المرجع السابق ج ٣ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

وكساد الصنائع والتكليف بما لا طاقة لهم به وفيهم من لا يملك قوت عياله أو تعمير سراجه فيكلف مع ذلك هذه التكاليف » (١٣٣) ٠

وفى مناسبة أخرى يشير الجبرتى الى معاناة الأهالى من جراء تلك البدعة السيئة التى يغالى المنافقون فى ابرازها ، ولا يترفع الحكام عن اقرارها فيقول ان احتفالات سقوت الدرعية وما أقيم فيها من زينات وما أنفق من أموال قد بلغ حدا يفوق الحصر وهى أمور من قبيل اللعب ، بينما يتلظى أهل الاستحقاق من شعب مصر فشلا وافلاسا ويحاصرهم غلاء الأسعار من كل جانب (١٣٤) ٠

٥ ــ يصف كلوت بك محمد على بأنه شديد التمسك بدينه من غير تعصب ولا تنطع وهذا قول تشير فيه أصابع الأتهام الى طائفة أو أناس لم يحدد هم كلوت بك ، وعلى الرغم من ذلك فاننا سنقصر حديثنا على شدة تمسك الباشا بالاسلام فقد أشار كلوت بك الى مدى سعادة محمد على حينما يتحادث مع الأوربيين ويجالس المستنيرين (١٣٥) وهذا قول يدعمه ما قاله الجبرتى حيث يقول « ٠٠٠ وعرفت طباعه وأخلاقه فى دائرته وبطانته فلم يمكنهم الا الموافقة والمساعدة فى مشروعاته اما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ٠٠ واما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة وهم الأكثر وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن

---

(١٣٣) عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ــ ج ٣ ص ٣٩٦ : ٣٩٨ ٠

(١٣٤) عبد الرحمن الجبرتى ــ المرجع السابق ج ٣ ص ٥٩٥ حوادث سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٩م) ٠

(١٣٥) استنار وأنار بمعنى واحد ، واستنار به أى استمد شعاعه ٠ مادة نور ــ لسان العرب لابن منظور ج ٦ ص ٤٥٧١ ط / دار المعارف (وكثيرا ما تطلق الكلمة على من تلقوا ثقافاتهم من الغرب أو تأثروا بها) ٠

وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسته وهم شركاء فى أنواع المتاجر وهم أصحاب الرأى والمشورة وليس لهم شغل ودرس الا فيها يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم وموافقة أغراضه وتحسين مخترعاته ... » (١٣٦) .

وقول كلوت بك عن شغف الباشا بالجلوس مع الأوربيين وقول الجبرتى عمن أصبحوا خاصة الباشا يشير الى الكثير من الاحتمالات التى يمكن أن تكون سببا لشغف الباشا بتلك الجلسات وعلى الرغم من كثرة الاحتمالات فلا يمكن لأحد أن يتصور أن الباشا وهؤلاء قد تحابوا فى الله اجتمعوا عليه وافترقوا عليه فلا يمكن التسليم بمقولة كلوت بك بتمسك الباشا الشديد بالاسلام وجلساؤه هؤلاء ، وخاصته أولئك .

واذا أضفنا الى ذلك بعضا من روايات الجبرتى التى تكشف عن معاملة خاصة لمسلمى مصر كقوله مثلا « وأما نصارى الأرمن وما أدراك ما نصارى الأرمن الذين هم أخصاء الدولة .. فهم يهدمون وينقلون لأبنيتهم ما شاءوا ولا حرج عليهم وانما الحرج والمنع والحجر الهدم على المسلمين فى مصر من أهل البلدة فقط» (١٣٧) تبين لنا أن الباشا قد اختص المسلمين فى مصر بالكثير من القيود ، الأمر الذى يصعب معه التسليم بشدة تمسكه بالاسلام .

ويعرض الجبرتى جانبا من أفعال جند محمد على وادارته

---

(١٣٦) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

(١٣٧) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٢١ .

فيقول « .. وغالبهم لم يصم رمضان ، ولم يعرف لهم دين يدينون به ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها ، اباحية ، أسهل ما عليهم قتل النفس وأخذ مال الغير وعدم الطاعة للكبير هم وأميرهم وهم أخبث منهم فقطع الله دابر الجميع» وفى موضع آخر يقول « وهم يجلسون على القهاوى ويأكلون وينفخون فى الدخان فى وجوه أولاد البلد على كره منهم على سبيل السخرية والهذيان بالصائم » ويقول أيضا « وقد اتفق أن شخصا منهم « من العساكر » أدخل امرأة الى جامع الأشرفية وزنى بها فى المسجد بعد صلاة الظهر فى نهار رمضان » (١٣٨) .

واذا كان الناس على دين ملوكهم وقد رأى الناس ولى أمرهم قد انصرف عن مناهضة الأفعال المذمومة المتنافية مع الاسلام الى احتكار سلعة أو محصول ، أو الى الغاء وقف أوقف على دار عباده أو دار علم وشغل نفسه بالبحث فى وسائل الغنى وما اعتقد أنه الحضارة والرقى ، فقد سلكوا هم سلوك الحاكم وأصبحت الأمور تنتقل من سيىء الى أسوأ حتى قال كلوت بك عن مصر محمد على « .. ان فى مصر من انحلال عرى الأخلاق ما أفضى بالبعض الى الترخص فى العرض بصورة لا يوجد لها مثيل فى بقية الممالك العثمانية » (١٣٩) ، واذا كان هذا حال المجتمع فى مصر محمد على أفنيس من العسير القول بأن القائم على أمر هذا المجتمع من أشد الناس تمسكا بالاسلام .

أما النظرة الشاملة الى خطوات محمد على نتبعد به كثيرا عن مسلك من تمسكوا بالاسلام فهو قد اتخذ من الغرب مثلا يحتذى فى كل

---

(١٣٨) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار ـ ج ٣ ص٤٨٩، ٤٩٠ حوادث سنة ١٢٣٠ ، ١٢٣١هـ (١٨١٩/١٨٢٠م) .

(١٣٩) كلوت بك ـ مرجع سابق ذكره ج ٣ ص ١٦٤ .

شيء فتهاون فى أمور الاسلام ارضاء لأهل الحضـــارة من الغربيين ، فحينما أقام الرجل نهضة مصر لم يقصد بذلك ابتغاء وجه الله ولا خدمة مصر الاسلامية ولا مسلمى مصر ، وحينما طور التعليم فى مصر عصف بمعاهد التعليم الاسلامى الأزهر وغيره ، وحينمـــا أحس بزعامة رجال الأسلام قضى على مراكزهم الأجتماعية ثم أبعدهم على دائرة القرار السياسى ، وحينما اتخذ أصفياء لجلسته اختارهم من غير المسلمين ، أفبعد هذه الخطوات يمكن لأحد أن يصـــف الرجل بأنه أشـــد تمسكا بالاســـلام •

ان واقع حال محمد على وخطواته تكشف أنه قد استكمل ما بدأه بونابارت فقد أرادت الحملة الفرنسية هدم الأزهر كرمز ولكن محمـــد على هدم الأزهر كمضمون ونتاج لذلك الرمز ، وأراد الفرنسيون نشر بعض العادات الفاسدة فى مجتمع مصر الاسلامى لسلب الناس ارتكازهم على قاعدة روحانية اسلامية فلم يتمكنوا لضيق فترة حكمهم فأكمـــل محمد على ما بدأوه ونشر هذه الأشياء طوعا أو كرها فى مجتمع مصر الاســـلامى •

سادسا : المصريون والأجانب فى ميزان محمد على :

لقد اعتمد محمد على باشا على ســـواعد المصريين فى انشـــاء دولته وتحقيق أطماعه فكانوا هم الوقود الذى احترق ليضيء ويمهد الســـبيل •

وللمصريين وعلاقتهم بمحمد على رؤية خاصة عنـــد كلوت بك فحينما تحدث عن قيام محمد على بانشاء جيش حديث قال : ولقـــد كان وراء تشكيل جيش منظم لمصر على الشكل الذى قام به محمـــد على وتوخاه نتائج عامة جزيلة النفع أولا لأن هـــذا التشكيل كان من

شأنه تعويد الأمة المصرية النظام بعد ، اذ لم تألف سوى الاختلال والفوضى حتى ذلك العهد ولم تتعامل بغير الضراوة والافتراس مع جنود الأتراك والأرنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام والتسيير بالعنف والشدة بين الناس والنزوع الى الفتن فى كل آن ٠

ويقول فى موضع آخر : ولقد رفع « محمد على » من شأن الشعب المصرى بأن جعل له روحا وطنية استرد بها ما فقده من الثقة والاعتزاز بنفسه (١٤٠) ٠

والمصريون فى مرآة كلوت بك قوم « لا يفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة الاستبداد الغاشم فكان هذا باعثا على استعمال الشدة ليضطرهم محمد على الى معاونته على اصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه (١٤١) ٠

وعن علاقة محمد على ببعض طوائف المجتمع المصرى يقول كلوت بك ٠٠٠ « وطبقة العلماء ٠٠٠ وهم يؤلفون الطبقة العليا من الأمة وكان لهم فى عهد سبق تأثير عظيم فى نفوس الأمة وقيادة آرائها فكانوا هم الذين يحرضونها على الحركات السياسية وافتتن ويصدونها عنها اذا أرادا ، غير أن الوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعل عالية سافله اذ انتزع من أيديهم الأملاك الواسعة التى ابتزوها من الأمة بطريق الاستفادة بما كانوا عليه من جهل وأوهام فاسدة ، فأصبحوا لهذه الأسباب ولا شىء بيدهم من السلطة وقوة التأثير لا على الأمة ولا على الحكومة (١٤٢) ٠

---

(١٤٠) كلوت بك ــ مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ٢٠٩ ٠

(١٤١) كلوت بك ــ المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٦٦ ٠

(١٤٢) كلوت بك ــ المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٣ ٠

وفى هذه الأقوال أوضح كلوت بك عدة أمور :

أولها : أن محمد على أراد تعويد المصريين النظام والانتقال بهم من حالة الاختلال والفوضى وتعدى الجند عليهم الى وضع أفضل من ذلك •

ثانيها : أراد محمد على أن يبث الروح الوطنية ليسترد المصريون ثقتهم وما فقدوه من اعتزازهم بأنفسهم •

ثالثها : أن بعض طوائف المجتمع « العلماء » كانت تتبوأ مكانا عليا بدون وجه حق حيث أقامت نفوذها على الجهل والأوهام الفاسدة وابتزت أموال الناس وهؤلاء هم العلماء المشايخ الذين نجح محمد على فى تخليص البلاد منهم حتى لا يثيروا فتنة أو يساعدوا على عصيان •

وفى الحديث عن الوضع الأفضل للمصريين وما ابتغاه محمد على من نظام عمل على تحقيقه نقتطف فقرات من تقارير القناصل الأجانب فى مصر ، وكلها تقارير سجلت على ألسنة معاصرين مكلفين من قبل حكوماتهم بوضع دراسات تحليلية دقيقة للمجتمع المصرى بكل طوائفه ولمصر بكل ادارتها وأحوالها •

يقول دوهاميل (١٤٣) Duhamel « ولما كان أبناء العرب المصريين لم يشغلوا حتى الآن سوى الوظائف الثانوية سواء أكان ذلك

---

(١٤٣) سفير روسيا بمصر ، وصل الى الاسكندرية فى ١٣ يناير ١٨٣٤ وقدم تقريرا للقيصر فى روسيا فى سنة ١٨٣٧ انظر ترجمة له فى ص ٤٥ من هذا البحث •

فى الجيش أم فى الادارة فان من العسير أن نتنبأ بما يكون عليه حالهم اذا اسندت اليهم مناصب رفيعة » (١٤٤) •

فاذا أخذنا فى الاعتبار أن هذا التقرير رفع الى القيصر الروسى اسكندر الأول فى سنة ١٨٣٧ «أى بعد تولى محمد على حكم مصر باثنتين وثلاثين سنة » أدركنا أن نوايا الباشا الحقيقية او تضمنت شيئا من النهوض بشعب مصر لما حرموا من الوظائف المتوسطة والعليا فى الجيش وفى الادارة •

وقد تضمن تقرير آخر لأجنبى آخر مدى العلاقة التى سادت بين ادارة محمد على وطائفة مهمة من شعب مصر ، تلك هى طائفة العمال « أو المستأجرين الذين يقومون بأعمال مدفوعة الأجر فى الهيئات الحكومية » فجاء فى تقرير جون بورنج John Bowring (١٤٥) ان الأجور التى يتقاضاها العمال من أبناء العرب المصريين ضئيلة الى حد مزر وكثيرا ما يتأخر بعضها لدى الحكومة ، وقد علمت أن الحكومة تتعمد أن تكون دائما مدينة لعمالها حتى تزيد سلطانها عليهم وحتى تحد من رغبهم فى ترك العمل » • فأى نظام هذا الذى أراده محمد على ، وأى وضع أفضل ابتغاه لشعب مصر •

يقول بورنج Bowring فى موضع آخر من تقريره « ••

---

(١٤٤) تقرير دوهاميل ـ انظر ترجمة كاملة له فى د• محمد فؤاد شكرى وآخران ـ بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) ص ٣٥٨ •

(١٤٥) انجليزى قدم الى مصر سنة ١٨٣٧ لوضع تقرير عن حالة مصر فى ذلك الوقت والتوقعات المستقبلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

الفلاحون المصريون أكثر شعوب العالم وداعة وحبا للسلام ، ولو أتيح لهم أن يزرعوا أراضيهم الخصبة فى أمان ما دار بخلدهم قط أن يشنوا حربا أو يخوضوا لها غمارا ، ... صحيح أنهم تعرضوا منذ عهد سحيق لظلم فادح ولكن هذا الظلم لم يفسدهم فقد أحنوا رءوسهم فى ذلة وخضوع ووضعوا على أعناقهم النير كما كان يفعل أجدادهم فى كل آن وليس هناك شعب أجدر بالرثاء من هذا الشعب فى ماضيه وفى حاضره » (١٤٦) ، ولعل هذه الأقوال تكشف انا أن مرحلة حكم محمد على لمصر ما هى الا امتداد لحالات القهر والظلم التى عاشها المصريون فى معظم مراحل تاريخهم على الرغم من عدم تسليمنا بما تضمنه قول بورنج من خنوع وخضوع المصريين دائما .

أما عن نظام محمد على الذى طبقه على المصريين ، وما آل اليه أمرهم ابان ذلك العصر من رفاهية وازدهار فيقول وليم هودجسون (١٤٧) W.B Hodgson « .. لا يوجد بلد مزارعوها بؤساء مثل مصر ، ملبسهم ومسكنهم ومأكلهم يثير الرثاء ، فهم يزرعون الأرض ويسلمون الباشا على ثمرة جهودهم تاركا للعرب « المصريين » ما يكفى بالكاد البقاء على قيد الحياة ؛ ... والباشا هو سيد الأرض ، والفلاح من

---

(١٤٦) تقرير جون بورنج – انر ترجمته الكاملة فى د. محمد فؤاد شكرى وآخران – مرجع سبق ذكره – ص ٦٩٩ .

(١٤٧) وليم هودجسون من أعضاء السفارة الأمريكية بالقسطنطينية أرسل الى مصر فى مهمة لدراسة امكانية قيام علاقات تجارية أمريكية مصرية ، قدم تقريرين أحدهما فى آخر ١٨٣٤ والثانى فى مارس ١٨٣٥ .

المزارع ، والباشا هو التاجر الوحيد الكبير ... » (١٤٨) ولاشك أن الباشا كان كما جاء فى تقرير هود جسون والتقارير السابقة التى ذكرناها ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يضفى على أعماله طابع المصلحة العامة ويصبغها بصبغة العدالة والرفق بالرعية وفى هذه الحيل يقول الجبرتى مشيرا الى بطانة الباشا وخاصته الذين « ليس لهم شغل الا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم وموافقة أغراضه وتحسين مخترعاته وربما ذكروه ونبهوه على أشياء تركها أو غفل عنها من المبتدعات وما يتحصل منها من المال والمكاسب التى يسترزقها أرباب تلك الحرفة لمعاشهم ... ثم يقع الفحص على أصل الشىء وما يتفرع منه وما يؤول اذا أحكم أمره وانتظم ترتيبه وما يتحصل منه بعد التسعير الذى يجعلونه مصاريف الكتبة والمباشرين أبرزت مبادية فى قالب العدل والرفق بالرعية » (١٤٩) .

وهذه الصور تظهر أمامنا عدم دقة الرؤية التى رآها كلوت بك حينما اعتقد أن محمد على أراد الانتقال بالمصريين الى وضع أفضل مما كانوا عليه ، حيث تسلط الرجل على مصر مالا ورجالا ووجه كل ذلك لتحقيق أهدافه الخاصة .

أما قول كلوت بك بأن محمد على أراد أن يبث فى المصريين الوطنية وأن يعيد لهم ثقتهم السابقة وأن يوجد لديهم اعتزاز بأنفسهم فمن المسلم به أنه كانت مصر فى زعامته هى التى تولى محمد على حكم

---

(١٤٨) د. لينوار تشامبر راتب ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ـ ترجمة د. فاطمة علم الدين عبد الواحد ص ٦٦ ـ هيئة الكتاب ـ مصر ١٩٨٧م (نقلا عن تقرير هود جسون المقدم فى ديسمبر سنة ١٨٣٤م) .

(١٤٩) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار

على يديهـا والرمز الحقيقى لتلك الزعامة هو الشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف وغنى عن التعريف ما فعله محمد على بزعيم شعب مصر عمر مكرم ، فكيف يستقيم حكم كلوت بك مع تصرفات الباشا ، وهنـاك جانب آخر لا غطورة عن نفى عمر مكرم ألا وهو نظـرة البـاشا الى المصريين الذى نعتهم دائمـا بفلاحى مصر تلك النظـرة التى كشفت ازدراء واحتقارا بصورة علنية أدركها المحللون الأجانب « واستودعوها تقاريرهم : فقد جاء فى تقرير للقنصل الأمريكى فى الاسكندرية قوله « ان ... محمد على لم يكن يحسب حسابا للمصريين « فلاحى مصر The Egyption Fallah الذين كثيرا ما يبدى احتقاره لهم » (١٥٠) فهل يتأتى من حاكم ينظر الى محكومية تلك النظرة أن تترجم تصرفاته على أنها بث للروح الوطنية و أن ما يقوم به هو رد الثقة الى المصريين وجعلهم يعتزون بأنفسهم ؟

أما قول كلوت بك عن المشـايخ العلماء وعلاقة محمـد على بهم واتهام المؤلف اياهم بأنهم قد أقاموا مركزهم على الجهل والأوهام الفاسدة وأكل أموال الناس بالباطل وأن محمد على جعل عاليهم سافلهم وقضى على نفوذهم بعد أن كانوا مصدر الثورات واثارة الناس .

فقد تضمن قول كلوت بك شقين أحدهما افتراء كاذب والثـانى حقيقة غير مكتملة ، أما الافتراء الكاذب فهو اتهامه لعلمـاء المسلمين المشايخ باقامة مراكزهم على الجهـل والأوهام الفاسـدة وأكل أموال

---

(١٥٠) الوثـائق الأمريـكية ـ تقارية القناصـل الأمريكيين فى الاسكندرية ـ الوثيقة رقم ص ٧ .

Despatches From u.s Conslues in Alexandria Roll No 1 T 45 From New york to Alex Sep 1833 p 7.

ـ جـ ٣ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

الناس بالباطل وهذا الاتهام هو أمر دأب عليه معظم كتاب الغرب وبخاصة أولئك الفرنسيين الذين رأوا استنفار المصريين لثورة على ألسنة أولئك الأزهريين ، ورأوا سواعدهم وهي تشكل وقود ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين ، ولم يفلح الفرنسيون فى هدم الأزهر لا شكلا ولا مضمونا بل لقى أحد قادتهم « كليبر » على يد الشامى موطنا والأزهرى ثقافة « سليمان الحلبى » مصرعه ، وفشلت كل سياسات بونابارت ومن حكم مصر من الفرنسيين من بعده فى احتواء تلك الجماعة التى لم تكف يوما ما عن أداء واجبها فى حفز همم الناس ودعوتهم للجهاد فى سبيل الله والدفاع عن دينهم وبلدهم •

ولا يعجب المرء من اتهام كلوت بك هذا لأن المشايخ علماء الأسلام وهم مسلمون بالدرجة الأولى ، وكان كلوت بك قد اتهم المسلمين بأنهم أعداء النصارى (١٥١) ، فمن الطبعى أن تزداد جرعة عدائه لأولئك العلماء لأنهم قادة المسلمين ومصدر امامتهم وتوجيههم ولاغرابة فى أن يبدى الرجل امتنانه لذلك المصير الذى انتهوا اليه وتلك النهاية المؤسفة التى خطط لها محمد على وأنزلها بهم •

أما الشق الثانى من قول كلوت بك والذى أتى مبتورا غير مكتمل فهو حديثه عن موقف الباشا من العلماء وقضائه عليهم والذى فات كلوت بك أن يذكر لنا جانبا من أسلوب سيده فى القضاء على أولئك الزعماء ، ونسى أو تناسى أن يتحدث عن تآمر محمد على على زعماء الشعب بالدسائس حينا والوقيعة حينا آخر ، كما اتجه الى البطش والقهر والى الكذب والتدليس واستطاع بحيله الماكرة التى امتزجت

---

(١٥١) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٣ ص ١٣١ •

بالوسائل الدنيئة أن يقضى على ذلك الصوت المؤثر والبـاعث للحـرية والمعبر الحقيقى عن صوت شعب مصر (١٥٢) ٠

وقد تمكن محمد على من التخطيط المحكم والتنفيذ الدقيق لمؤامرته على علماء الاسلام فى مصر ، والتى استهدفت شعب مصر بأسره حتى قضى على زعامتهم وأصبحوا « ٠٠٠ فى حالة انحطاط وانخفـاض ولم تقم لهم قائمة ٠٠٠ ولم ترتفع لهم راية » (١٥٣) ولاشـك أن نفى عمر مكرم كان القشة التى قصمت ظهر البعير فأجهزت على الزعامة الشعبية وسكت صوت الشعب الحقيقى فى مصر منذ ذلك التاريخ ٠

تلك كانت رؤية محمد على للمصريين ، وذلك أسـلوبه معهم ، وهذه هى أهدافه التى سلك كل السبل لتحقيقها ، ايتسق ذلك مع ماقاله كلوت بك ، وهل يمكن حمل تصرفات الباشا السابقة على محمل تعليم المصريين النظام وبث الروح الوطنية فيهم ؟

أما الأجانب فيقول كلوت بك عن علاقتهم بمحمـد على وعلاقته بهم ، « ٠٠٠ ان من أبعث الأمـور على سرور الباشا التحـدث مع الأوربيين ٠٠٠ وما كاد يضرب بسـهم فى القراءة حتى تفرغ لدرس التـاريخ وكان أهم ما شـغله منـه تاريخ الاسـكندر ٠٠ ونابليون بونابارته » (١٥٤) ٠

---

(١٥٢) د٠ مالك محمد أحمد رشوان ـ علماء الأزهر بين بونابارت ومحمد على ـ ص ٣٠٣ : ٣٥٠ ٠

(١٥٣) عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ جـ ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ٠

(١٥٤) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٣ ص ١٠ ٠

ويضيف كلوت بك « .. وفى مجلس سمو الوالى « والى مصر » يظل الحاضرون جميعا وقوفا على أقدامهم حاشا الأمراء من أعضاء الأسرة الحاكمة الباشوات وأكابر رجال الدين ولم يتبع سموه هذه العادات مع الأجانب ولاسيما الأوربيين فانه يدعو الى الجلوس جميع الأجانب الذين يقدمون عليه » (١٥٥) .

يقول كلوت بك واصفا تسامح الباشا فى تعامله مع الأجانب : اذا ضبط الشرطة فى مصر بعض الأوربيين متلبسين بجريمة انتهاك حرمة مسلمة وسلب عفتها فان سوادهم الأعظم يطلق سراحهم بناء على التسامح مع الأجانب والترخص فى العرض بصورة لا يوجد لها مثيل فى الممالك العثمانية ، ولم تطبق عليهم العقوبة وقد شهدت فريقا من الأفرنج ام يقدروا هذا التسامح حق قدره بل تعدوه الى ما يصح أن يوصف بالعبث الذى لا مسوغ له(١٥٦) .

ولعل هذه التفرقة فى التعامل بين المصريين والأجانب ، ولعل هذا التسامح فى حقوق شعب مصر ، وهذا التساهل والتهاون فى التعامل مع الأجانب هو الذى جعل كلوت بك يشيد بلياقة الباشا ، ورشعة ذوقة ، وتحضر أسلوبه فيقول : أما سمو محمد على فقد ربأ بنفسه عن الأنغماس فى الأوهام الفاسدة وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين .. وأقام الدليل على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه ، ولذلك فانه يتلقى الأجانب دوما بما جبل عليه من الأنس والرقة وحسن التعهد(١٥٧) .

---

(١٥٥) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ ج ٣ ص ١٦٤ .

(١٥٦) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ ج ٣ ص ١٣٧ .

(١٥٧) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ ج ٣ ص ١٢٧ .

ولقد لفت تسامح الباشا مع الأجانب نظر القناصل الأجانب فكتب القنصل الأمريكى هود جسون يقول (ان المزايا التى منحها محمد على للرعايا الأجانب لا يستمتع بها المسلمون أنفسهم أو الذميون استمتاعا كاملا ، وتفضيل الأجانب على الرعايا والأتراك على هذا النحو أمر غير مألوف فى الادارة المدنية كما لا يسهل ادراك كهنه ، فبينما يدفع الأفرنج ضريبة جمركية قدرها ٣٪ يدفع المسلمون ٤٪ والذميون ٥٪ هذا فضلا عما يدفعونه من اتاوات جبرية وعوائد مرور بعض منها الأفرنج) (١٥٨) .

وقد حاول هود جسون البحث عن مسوغ لذلك الوضع الشاذ الذى يقوم به محمد على فقال (... وترجع تلك المحاباه الى اكرام الغرباء ، وبلادة الأتراك وقلة اكتراثهم بالتجارة ونفورهم من الملاحة)(١٥٩) .

ولعل هذا الوضع وتلك التصرفات هى التى جعلت كلمات الإشادة بخلق الباشا تتردد على لسان كوت بك الذى قال (أن اشتهار محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمى الأرض قاطبة(١٦٠) هو الذى يجذب الأجانب الى مصر) .

والحقيقة أن اطلاق يد الأجانب فى مصر قد عاد بنتائج سيئة على النواحى الخلقية كما كان لها أثرها على الاقتصاد المصرى وعلى مجتمع مصر .

ومن الآثار السيئة التى صحبت تساهل الباشا شرب الدبيذ وانتشار الحفلات الراقصة ، وأزمات المساكن ، وابتزاز أموال المصريين على أيدى الأفاكين ، وانتهاك أعرض المسلمات دون عقاب ، ونهب الآثار

---

(١٥٨) تقرير هود جسون ـ د. محمد فؤاد شكرى وآخران ـ بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) ص ٢٨٠ .

(١٥٩) تقرير هود جسون ـ المرجع السابق ـ الصفحة نفسها .

(١٦٠) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ ج ٣ ص ١٢٢ .

الفرعونية والانحلال الخلقى ، واحتقار الأجانب للمصريين ، وهـذه الأشياء لم تلبث أن فرضت نفسها على حديث وكتابات المؤرخين ، حتى أن كلوت بك نفسه لم يستطع المرور دون عرض صور لهذه المخزيات .

ومن المسلم به أن الخمر قد حرم الاسلام شربه ، وامتد التحريم ليشتمل تصنيعه وبيعه ، وقد كان فى مصر بعض أناس من غير المسلمين يقومون بتصنيع الخمور وبيعها لغير المسلمين أيضا ، وبعد اقامة الأفرنج بمصر بالصورة الواسعة التى أرادها محمد على وبعد أن جعل محمد على من هؤلاء صفوة المجتمع أباح بعض المسلمين لأنفسهم التشبه بهؤلاء ، يقول كلوت بك (والمسلمون الذين يبيحون لأنفسهم شرب النبيذ وغيره من المشروبات المتخمرة ، قليلو العدد وهم الذين وقع الاقتصان بينهم وبين الأوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم) (١٦١) .

ومن الأشياء التى استحدثت فى مجتمع مصر انتشار الحفلات الليلية واقامة المراقص التى تحف بها مظاهر البذخ وانتشار بعض المعاهد التى تخصصت فى التمثيل وفى ذلك يقول كلوت بك (ان الأوربيين تتألف منهم مستعمرة يلم شتاتها أحياء خاصة بهم ويمتاز أهل الطبقة العليا منهم بالتوسع فى الانفاق على ما هو مألوف فى الهيئات الاجتماعية الاستعمارية وتجرى البذخ فى الأبهة ... وغالبا ما تضم الحفلات الليلية الفخمة وتعد المعدات الباهرة لاقامة المراقص التى تحف بها مظاهر البذخ ، ويوجد فى الاسكندرية معهدان صغيران ... وقد خص أحدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الإيطالية)(١٦٢) .

وقد يرد على هذه الأمور بأنها كانت قاصرة على احياء الأوربيين

---

(١٦١) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٣ ص ١٠ .

(١٦٢) كلوت بك ـ المرجع السابق ـ جـ ٢ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

فقط ، ولكن والى مصر قد أبدى احترامه لأولئك الأوربيين بما هم عليه من صفات وبما يقومون به من أفعال ، فكان من الطبيعى أن يتأثر بعض الأهالى بتلك الأشياء ويرغبون فى تقليد أولئك الذين وضعهم الباشا على قمة الهرم الاجتماعى المصرى خاصة بعد أن عيب الباشا دور المشايخ العلماء وحصرهم فى قراءة البخارى فى زوايا الجامع الأزهر ابان حالات الضجر التى كانت تحل به (١٦٣) والناس على دين ملوكهم :

وقد أبدى الجبرتى ضيقه ونقل صورا عما حل بالأهالى من ضيق الأمر الذى اضطرهم الى هجر مساكنهم طوعا أو كرها ، وفى ذلك يقول (واشتد أمر المساكن بالمدينة « القاهرة » وضاقت بأهلها لشمول الخراب وكثرة الأغراب وخصوصا المخالفين للملة فهم الآن أعيان الناس يتقلدون المناصب ويلبسون ثياب الأكابر ويركبون البغال والخيول المسومة وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم وبأيديهم العصى يطردون الناس ويفرجون لهم الطرقات ويتسرون بالجوارى بيضا وحبوشا ويسكنون المساكن العالية الجليلة يشترونها بأعلى الأثمان ... وتوصلوا بتقليدهم مناصب البدع الى ازلال المسلمين لأنهم يحتاجون الى كتبة وخدم وأعوان والتحكم فى أهل الحرف بالضرب والشتم والحبس من غير انكار ويقف الشريف والعالمى بين يدى الكافر ذليلا فضاقت بالناس المساكن ... والله لطيف بالعباد) وحتى يدلل الجبرتى على أن هذه ليست بالحالات الفردية وأنها منتشرة بصورة واضحة فى المجتمع المصرى يقول (... ولو أردنا استيفاء بعض الكليات فضلا عن الجزئيات لطال المقال وامتد الحال وعشنا وقتنا ما نرى غير ما نرى، تشابهت

---

(١٦٣) د. مالك محمد أحمد رشوان ـ علماء الأزهر بين بونابارت ومحمد على ص ٣٦٩ .

العجمى وزاد انعجامها نسأل الله حسن اليقين وسلامة الدين) (١٦٤) .

وأقوال الجبرتى هذه غنية عن الشرح واضحة لا تحتاج الى تعليق تعبر بصدق عن ضيق الأهالى والناس بما شهده المجتمع من تجاوزات وبما حل بالبلاد على أيدى أولئك بعد أن ترك الباشا أمامهم الأبواب مفتوحة على مصاريعها(١٦٥) .

ومن الظواهر اللافتة للانتباه انتشار الأفاكين وأهل الغش وطالبى المال والغنى بدون حق اعتمادا على ما خول لهم من سلطات وما منح لهم من امتيازات وما بسطته عليهم قنصلياتهم من حماية ، وما نسبوه من بساطة وتلقائية عند أهل مصر وفى ذلك يقول الجبرتى (وفى يوم الخميس الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٣٢هـ وصل خبر الأطباء ومناراتهم الى كتخذا بك فأحضر حكيم باشا وسأله فأنكر معرفتهم وأنه لا علم عنده بذلك فأمر باحضارهم وسألهم فخلطوا فى الكلام فأمر باخراجهم من البلدة ونفوهم فى الحال وذهبوا الى حيث شاء الله ولو فعل مثل هذه الفعلة بعض المسلمين لجوزى بالقتل أو الخازوق)(١٦٦) .

وكان الأجانب (الأوربيون) يتوافدون على مصر التى فتح الباشا أبوابها أمامهم بدون ضابط يتوافدون فرادى وجماعات فاستمرت حالات مجيىء أولئك الراغبين فى الغنى على حساب شعب مصر حتى أصدر الباشا فى (١٢ رمضان ١٢٤٤هـ أمرا الى بوغوص بك يفيد بأنه تم الاتفاق مع قنصلى فرنسا وانجلترا على ابعاد من لا صنعة له ولا كسب لبلاده ، وطلب منه أن يعلن ذلك بصوة ودية لباقى القناصل

---

(١٦٤) عبد الرحمة الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ آخر سنة ١٢٣٥هـ ، جـ ٣ ص ٦٢٣ .

(١٦٥) يعرض كلوت بك صور لأصحاب المشروعات الوهمية ، والمغامرين ... انظر لمحة الى مصر جـ ٣ ص ١٦٠ .

(١٦٦) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق ـ جـ ٣ ص ٥٥٧ .

(الأوربيين) المبادرة بابعاد أمثالهم من رعاياهم مع تبليغهم احترام الباشا)(١٦٧) .

وقد تطور أمر ضيوف محمد على الى أن امتدت يدهم لتسرق الآثار الفرعونية وذلك بالتعاون مع محمد على باشا . يقول الجبرتى (ومن أحداث شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٢هـ أن طائفة من الأفرنج الانكليز قصدوا الإطلاع على الأهرام .. لأن طبيعتهم الآطلاع على الأشياء المستغربات .. وخصوصا الآثر القديمة وعجائب البلدان والتماثيل ... ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض ويصرفون لذلك جملا من المال ... حتى ذهبوا الى أقاصى الصعيد وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وتصاوير ونواويس(١٦٨) كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية بسبب الأطلية .. الحافظة.. وتماثيل آدمية من الحجر ... وأرسلوها الى بلادهم لتباع هنالك باضعاف ما صرفوه عليها ...)(١٦٩) وهذه صورة تنطق بالصدق وتصور لنا كيف تعامل محمد على مع مصر تراثا وشعبا .

أما عن تردى خلق الأوربيين ، وخروجهم على العرف والعادة فيتحدث عنه كلوت بك قائلا (... ومما يؤسفنى ذكره هنا ما لاحظته فى الأخلاق والآداب بين الجالية الافرنجية من التجوز والترخص فحيل الغرام ودسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة ، ولكن هذا الانحلال الخلقى لا ينفى وجود أشخاص وأسرات على غاية من العفة والإستقامة)(١٧٠) .

---

(١٦٧) أمين سامى ـ تقويم النيل ج ٢ ص ٣٤٥ .

(١٦٨) نواويس : النـاووس مقـابر النارى ـ لسـان العـرب ج ٦ ص ٤٥٧٥ .

(١٦٩) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق ج ٣ ص ٥٧١ ، ص ٥٧٢ .

(١٧٠) كلوت بك ـ مرجع سبق ذكره ـ ج ٣ ص ٢٥٣ ، ١٥٤ .

ويصف كلوت بك حالة احتقار الأوربيين لأهل مصر وتعمدهم الإتيان بأفعال استفزازية فيقول (وثمة فريق •• يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بآداب المجاملة ويرون أن من بواعث السرور ودواعي الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والأخلاق وأن يعبثوا بالحرية التي منحها سمو الوالي للأوربيين من فيوض كرمه)(١٧١) •

تلك صور من تصرفات وأفعال بعض الأوربيين الذين استقبلهم محمد على باشا على أرض مصر والذين منحهم من فيوض كرمه — على حساب شعب مصر — الكثير والذين فضلهم عن أبناء مصر ، فما أجدره أن يقول عنه كلوت بك — وهو أحد هؤلاء — ان اشتهار محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمى الأرض قاطبة يعد سببا لجذب الأجانب الى مصر)(١٧٢) خاصة وأنه (يتلقى الأجانب دوما بما جبل عليه من الأنس والرقة وحسن التعهد •• وبذلك أقام الدليل على رجاحة عقله وحسن تسامحه وحجم أدبه)(١٧٣) •

هذه بعض المآخذ عى كتاب لمحة الى مصر كلوت بك ، وقد تعرض المؤلف فيما تعرض لعدد من القضايا التى تمس التشريعات الإسلامية كتعدد الزوجات فى الاسلام ورؤية الاسلام للمرأة ،ومفهوم الحرية الدينية ، والربط بين بعض العادات الذميمة والتشريعات الاسلامية ، وهذه أمور يستعصى على أن أقول انها ليست من صميم تخصصى فأنا باحث مسلم ، لكن أكاديمية البحث جعلتنى أقتصر على الحديث عن الجوانب التاريخية تاركا الباب مفتوحا أمامى وأمام الباحثين المتخصصين فى العلوم الشرعية والدينية حتى يتم وضع النقاط على الحروف ، وعلى الله قصد السبيل •

---

(١٧١) كلوت بك — مرجع سبق ذكره — جـ ٣ ص ١٦٣ •
(١٧٢) كلوت بك — المرجع السابق جـ ٣ ص ١٢٢ •
(١٧٣) كلوت بك — المرجع السابق جـ ٣ ص ١٢٧ •